

محمد رفیع عبدالحمید

سلاسل

محمد بن عبد الله



أشعار

إلى أبي : شكر وولاء ؟

كلية المؤلف

أشواك الورد تدمى الأنامل ،
وتخدش الشفاه ، وتجرح الخدود ،
وعبير الورد ينعش الأفئدة ، ويبهج
الأنفس ويسعد الأرواح .
وفي هذا الكتاب ، مزيج
من اللذة والآلم مثلها في الورد
وأشواكها .

عابد الخيال

... لماذا تشوه من جمال الحقيقة أيها الانسان ،
إنها جميلة زاهية ... لكنها تبدو لك قبيحة منفرة ،
لأنك أنت الذى أفسدت روائها وبهجتها ...

حكى أن غلاماً يافعاً أحب الشعر وترنم به وأرسله
ولما أدرك أن الخيال هو مصباح الشاعر الذى يضئ له
الطريق ويكشف أمامه السبيل إلى الصور الجميلة والمعانى
العذبة فقد وطد العزم على البحث عن الخيال - مهما كلفه
ذلك - ليحظى بهذا النعيم .

وخرج إلى الربى والوديان باحثاً منقباً ، حتى كان ذات
صباح من أيام الربيع السعيدة ، انتشر فيه أريج الأزهار
المتفتحة ، ورفرف الأمل فوق الأرض بأجنحته الحريرية ،
وردت جوانب الوادى تغريد البلابل وزقزقة العصافير .
انطلق يتلفت حوله باحثاً عن الخيال ، وسط تلك
المظاهر الفتانة ، متنقلاً ببصره بين ماء الغدير يحاكي البلور
فى صفائه ، وأزهار البساتين المنتشرة تلبس الأرض حلة
بهيجة من الألوان الزاهية .

وبجأة وقف الفتى جامداً كالتمثال ، حائر اللب ، محدقا
أمامه ، يتطلع إلى مخلوقة لم تقع على أجمل منها العين ،
هيفاء فاتنة رائعة ، لم يستر بشرتها الوردية سوى غلالة
شفافة من حرير أحمر ، تهفّف كلما هب النسيم .
جمد المسكين أمامها كمن مسه الخبال ، إذ رآها تدنو
منه في دلال وسحر ، وترنو إليه في فتنة واغراء .
وارتعد لسانه في فمه يلجلج قائلا :

— آه يا .. سيدتى !.. أنت بحق أجمل مخلوقة في هذا
العالم ، وما ظننت يوماً أن الجمال يتوفر هكذا في عادة
واحدة ، فبالله عليك خبريني من أنت ؟
وتثبت في دلال ، ثم قالت :
— أنا ... الخيال !

فصاح الفتى في نشوة من الفرح :
— هذا ما أدركته ياسيدتى منذ رأيتهك ... لقد بحثت
عنك كثيراً حتى كدت أياس ، ولكن ها أنا أجذك
يا ضالتي المنشودة ، لقد وقفت حياتي على العثور عليك .
والاقتران بك ، لأحظى بالسعادة الأبدية ، تزوجيني
ياسيدتى وسأكرس حياتي ووجودي لسعادتك وهنائك .

وراحتك — أستحلفك بالله أن تقبلي — وإلا فلا حياة
لي بعد هذا !..

وعادت الغادة فمالت كالغصن يحنيه النسيم ، ثم همست
في أذن الفتى ما أسكره قائلة :

— قبلت حبك ، والزواج منك منذ الآن !!
وفي لحظة كانت القبلات تغمر يديها ووجهها ، وتأبط
الفتى ذراعها العاجي ، وسارا في حذاء الغدير ينشدان
أنشودة الهوى والشباب .

ولم يكن لدى الفتى مال كثير ، أو قصر كبير ، بل إنه
عاد بعروسه إلى كوخ في أحد أطراف المدينة ، فأدخلها
حجرتة البائسة ذات السرير الخشبي ، معتذراً عن تلك
المظاهر الخشنة بفقره ، ولكنه أقسم بحرارة أنه سيأتيها
في الغد بمال وثياب وطعام ، وسيغذيها بروحه وحنانه
ليشعرها بالسعادة والهناء .

ومضى أسبوع والفتى يقضى اليوم من شروق شمسهِ
إلى غروبها باحثاً عن عمل ، وعند ما كاد ييأس وفق إلى
عمل ضئيل في طاحونة للقمح .

وكان أول ما فعل أن اشترى بأجر يومه ثوبين من

القطن لزوجته ، فرحت بهما فرحا شديدا ، وقبلته في ثغره
قبلة طويلة أرجفت جوانبه .

وفي صباح اليوم الأربعين ، قبل أن ينطلق أول شعاع
من ضوء الشمس كان الشاب جالسا أمام كوخه يوقد
النار ، وبعد أن وضع القدر عليها ، تسلسل إلى حجرة
معبودته ليوقظها من سباتها بقبلة ناعمة مدللة .

ولما دنا من الفراش تراجع مذعورا فزعا مما رآه ،
لقد شحب وجه حبيبته ونحل جسدها نحولا شديدا ، حتى
لكأنه عظام جردت من اللحم ، فصاح من هول المنظر
صيحة استيقظت أثرها الفتاة خائفة مرتاعة ، وحين لمحته
بجانب الفراش سألته في صوت خافت واهن :

— ماذا حدث ؟

— انظري إلى نفسك !.. إلى ذراعيك وساقيك !..
لقد تلاشيت في ليلة واحدة !.. ولم يعد لعينيك بريق
السحر !.. وقد اختفت ضفائرك الذهبية التي كانت تتوج
رأسك !.. وبرزت عظام وجهك .. وتجددت بشرتك !..
وأصبحت كالهيكल المرعب المخيف !

وساد صمت قصير لم يكن يسمع فيه غير بكاء الفتاة .

— إذن فلم تكن تحب غير جسدي ! .. وجمالي ! ..
وأنت الآن تنفر من هياتي وتفزع مني ، ولا يمكنك
الدنو نحوي ، ولا لمسي ، ولا تقبيلي ، كما كنت تفعل
أولاً ، حتى ولو أعطيت ذهباً ..

— كيف أحبك الآن وأنت هكذا ؟ أشبه بالميتة ،
نحيلة كالعصا ، جافة بجذع النخلة ! وثوبك .. بل بشرتك
قد أصبحت خالكة قدرة ، أنا لا أحتمل رؤيتك بعد الآن ،
إنك خدعتني ، فليست أنت « الخيال » ، وقد شككت
في ذلك من زمن بعيد ! وإني لمجنون لو بقيت بجانبك
لحظة أخرى !

وانطلق الفتى إلى قارعة الطريق ، فسار على غير هدى ،
وعند ما توسطت الشمس قبة السماء كان قد بلغ مدينة
أخرى على شاطئ البحر .

وتعلم أن المال ضروري قبل أن يعيد الكرة باحثاً
عن الخيال ، فأخذ يكمد في إحرازه وجمعه حتى صار
في بضع سنين ، من أغنياء المدينة ، عنده قصر وخيل
وحرير .

و ذات يوم وقد أصبح رجلا كامل العقل والنمو ، جاءه
الداعي يدعوّه إلى حفلة ساهرة في بيت كبير من كبراء الحى .
وكان البيت غاصاً بعلىة القوم ، قد انتحى كل جمع منهم
ناحية من القاعة المزدھية بالأنوار الباهرة ، يتحدثون
سمرا وشجونا .

و تقدم رجُلنا يتلفت متهاديا في مشيته لعله واجد من
يعرفه فيعرج نحوه ، ولكنه صادف في طريقه جمعا من
القوم يملأون ركنى هادىء الضوء ويحيطون بغادة فتانة
إحاطة الهالة بالقمر ، فيستنشقون عير جمالها ويروون
أفئدتهم برحيق حديثها .

وساقته قدماه نحو هذا الجمع الحالم ، ووقف عن كشب
يحلم معهم بنشوة الفتنة والدلال .

وتصاعدت الموسيقى من ناحية البستان المزين بالأنوار
الملونة ، وحمل النسيم إلى الآذان أمواج رنين الناقوس
يعلن ابتداء الوليمة ، فتحركت الجموع ، وفيها الجمع الحالم
نحو قاعة الطعام ، ولكن الغادة الرائعة استأذنت في التخلف
برهة ، وعند ما نأى القوم أشارت لعابد الخيال أن يدنو
منها ويقرب .

وعند ما كادت تتمازج الأنفاس همست إليه في رقة
أذابت جنانه :

— لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟

— لأنى أشك فى أنك ..

— الخيال !.. أليس كذلك ؟!.. لقد أصبت !.. إني

أنا الخيال ، فهل تبحث عنى ... وهل تحمل لى بين جنيتك
عطفاً مثل الذى تخبر به عيناك !!..

— عطفاً !.. بل قولى حياً .. أو عبادة !! إني أبحث

عنك منذ صباى — لأحبك وأقدسك وأكرس عمري
لإسعادك وإرضائك .

— وهل تعتقد حقاً فى كل ما قلت ؟!

— بل هو كل ما أعتقد به !!

ولم يعرف الرجل ولا أمنيته ماذا حدث بعد ذلك
فى تلك الحفلة ، لأنهما انصرفا مع هبات النسيم ، وانطلقا
يسبحان فى ضوء القمر .

وتزوجا فى الغد ، ومرت بهما الأيام ، زرقاء السماء ،
صافية الأديم ، يرتعان فى بحبوحة الهناء ، ورغد الحب .
إلى أن كان ذات يوم ، وقد وقف الرجل فى إحدى

غرفات قصره ، يرنو من طرف خفي إلى زوجته ، وهي تمشط شعرها الذهبي .

وأصابته الرجفة حين تكشفت أمامه الحقيقة ، فرأى هولا وعجبا ، شعر امرأته يسقط إلى الأرض خصلة بعد خصلة ، وجسدها البض ينكمش ويسود لونه ، وقوامها الأهيف يختلج ، فيحدو دب الظهر وتلتوى الساقان .

وحين أسرع نحوها ليتبين جلياً ما حل بها عاد فنكص على عقبيه فزعاً حين لمح وجهها مشوهاً مثل وجه شيطان أو قرد ...

وصرخ في صوت مرتعب مرتعد :

— ما هذا يا زوجتي ؟ ! . ما الخصلات شعرك تسقط إلى الأرض وتغادر رأسك عارية صلحاء ؟ ! ما وجهك يربد ويسود ، ويحف وينكمش ؟ ! . وما لجسدك يهرم ويشيخ في غمضة عين ؟ ما ذا حل بك أيتها .. المرأة !!

— حقاً لست أدري يا زوجي العزيز . ولكنني صرت هكذا وسأبقى هكذا ! ...

— ستبقى هكذا ؟ ! . ما ذا تعنين ؟ . ستمكثين هكذا شمطاء تجزع العين من رؤيتك ويرتعب الفؤاد من النظر

إليك ؟ ! . حقاً تلك هي الطامة الكبرى .. وهذا هو البؤس
الذى لا يحتمل .

وفي ضحى الغد كان الرجل يوخز جنوده ليجد في
السير بعيداً عن البلدة التى تحوى تلك الشيطانة المريدة .
وليلبلغ إحدى القرى ، حيث كان له قصر جميل يقوم على
رأس رابية مزدهرة ويطل على واد يانع بالكروم .

وبعد مسيرة ساعتين تعب الجواد وتصبب عرقه ،
فترجل الراكب إلى صخرة بجانب الطريق ، وجلس عند
أحد أطرافها يمعن النظر فى الربى والوديان الممتدة أمامه
إلى نهاية الأفق .. ثم يعود ببصره يتبين مدى الهاوية
العميقة التى امتدت تحت الصخرة .

وما لبث برهة حتى لاح أمامه طيف امرأة تسعى
إليه من ناحية الأفق . وظل الطيف يدنو حتى تبين فيه آية
من آيات الفتنة الرائعة والحسن الساحر ، ففتح
فاه لينطق وإذا بالطيف يتبدد ويلهج مكانه شبحاً لعجوز
قييحة شمطاء !

وفزع المسكين فزعاً شديداً ، وظن أن ذلك الطيف

وهذا الشبح إنما هما صورتان لزوجته التي غادرها
نفوراً وكرهاً .

وصاح في صوت متهدج يخاطب الشبح :

— عفواً يا سيدتى .. لقد ظلمتكَ .. وكنت ..

وجف صوتته في حلقه ، إذ لمح الشبح يولى ورأى
حليف الحسنة يعود فيدنو نحوه ، فقال في جزع :

— من أنت يا سيدتى ؟ !

وأجابه الطيف مولياً :

— أنا الخيال ! ..

ومد يده ليمسك بطرف رداء الخيال فأطبق أصابعه
على الفضاء وأبصر بشبح العجوز يقترب منه مرة أخرى
فصاح متوسلاً :

— ومن أنت يا سيدتى بالله عليك ؟ !

— أنا ! .. ألم تعلم بعد من أنا ؟ .. أنا الحقيقة أيها
الإنسان ! فتعال إلى وقبِّلنى وتزوجنى ، وسترى إلى أى
شئ أصير ، سترى أنى سأنقلب جميلة حلوة فتانة ، ولكنه
جمال دائم وحلاوة باقية ، وإنما أبدو لك قبيحة مشوهة
لاختبر نفسك الأمانة بالسوء ، الطامعة إلى الشهوات

الزائفة ، أما تلك المرأة التي قتشت عليها وعبدتها وغرك
منها مظهرها وهيأتها ، إنما كانت خيالا في خيال... وحينما
تكشفت لك حقيقتها نفرت منها وهربت !!.. فما رأيك
أيها الانسان الطائش ؟ هل تتبعني فأذيقك لذة الهناء الحق
والسعادة الأبدية .. أم مازلت تعبد الخيال وتؤمن به .. ؟
وحار الرجل في أمر هذا الحديث الغريب الذي
يسمعه ، ثم نظر إلى الشبح وغطى وجهه جزعا ونطق
لسانه عن إichاء نفسه قبل إichاء عقله .

— وكيف أصدقك ياسيدي . وهيأتك تبعث الفرع
في النفس ، ولا تثير إعجابا ولا حبا !!

ولم يخفف الشبح قبل أن يقول كلمته :

— إن لك دائما ما تريد أيها الإنسان !

وبعد برهة لاح الطيف هذه المرة آية في الجمال يرقل
في ثياب رقيقة متلونة بألوان قوس قزح السبعة وله
جناحان ذهبيان !!

وطفح وجه الرجل بشراً وقال :

— سيدتي ! بالله عليك .. امكثي ولا تولى ، إني أبحث

عنك من زمن بعيد ، إني أعبدك وأحبك ، وأحلم بك دائماً ..

وقاطعه الطيف قائلا :

— أيها الرجل إنك كرهتني مرتين - ووليت مني
فراراً . . فلم هذا الخداع تخدع به نفسك وتسيء الى ؟ !
— إني لم أكن أدري ما أفعل ، إني أعدك بالاخلاص
اليك والوفاء لك ، فامكثي ولا تذهبي !

— كلا — إني ذاهبة أيها الرجل . فان أردتني ورجبت
في صحبتي فاتبعني واصعد فوق أجنتحتي
وطار الطيف وثرغر الحسناء يبتسم يحرض الرجل
على متابعته

واختلج الرجل على حافة الصخرة . . . ومد يده
ليمسك بطرف من رداء الطيف فأطبقها على الهواء ، ثم
هوى الى قاع الهاوية يتخبط بين الصخور وتلقاه
التراب مضرجا في دماثه ولم يغنم من ألوان رداء الخيال
السبعة — غير الأحمر — وهو لون الدم . . .

قيام الساعة

« فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت »
« الارض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ »
« وقعت الواقعة » . « قرآن كريم »

صلاح الدين حسين قتي تقي ، شب وترعرع في عبادة
الله ، والاخلاص للناس ، ولم يكن بالذي يفته فرض
من فروض الدين إلا أداه على الوجه الذي أوجبه الشرع ،
كان يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويحسن
على المساكين كلها وجد في جيبه ما يزيد على كفاية يومه ،
ولم يكن ثرياً ولكنه كان يقدر النعمة حق قدرها ،
فيصرفها بحساب ، وفي الوجه الحلال .

لقد كان نادرة في الوسط الذي يعيش فيه ، وسط
الطلبة والشباب ، حيث تكثر النزوات ، ويسود الطيش ،
ويجر الطالح الصالح إلى موارد اللذة المحرمة ، ومهاوى
الفساد والرذيلة . كان طالباً بدار العلوم ، يسكن عند أحد
أعمامه في مصر . فاذا انقضى العام الدراسي استأذن في

العودة إلى بلده - وهي قرية من قرى الوجه البحرى -
فيمكنك هناك حتى يولى الصيف ، ثم يعود بعد ذلك
ليواصل طلب العلم .

كان يتما وحيداً توفي أبوه منذ طفولته ، وكفله
أعمامه بعد أن ولت أمه فى أثر أبيه ، فأحسنوا تربيته
وتهذيبه ، ولا غرو فهم من أهل الفضل والعلم ، ولهم فى
ذلك الميدان همة تذكر . وقد استقر بهم المقام هم وأسراتهم
بالقاهرة ، ولم يبق فى القرية غير أخيهم الأكبر ، يرعى
أموالهم وأمواله ، من أرض ومواشى وزراعة .

ولقد شب صلاح الدين لفرط إيمانه وتقواه وسلامة
طويته ونقاء ضميره ، غيوراً على الفضيلة لا يطيق رؤية
حرمة من الحرمات تنتهك ، أو حق من الحقوق يؤكل
أو يسلب ، دون أن يشور ويجادل حتى ينتصر ، وتلك
من صفات الايمان الحققة .

ولشد ما كان يؤلمه ويؤذى مشاعره ما تعود أن يرى
من أهل بلدته من حب للشر والاثم وبعد عن السلام
والفضيلة مما جعله يفكر فى عدم قضاء العطلة هناك ،
يغالب باطلهم بكل ما أوتى من قوة ، فلا يجد له من دونهم

نصيراً غير شيخ وقور صالح اشتهر بالورع وحب الخير .
وهو إمام المسجد وخطيبه ، فكان يطمئن إلى مجلسه ،
ويجد في حديثه إيناساً ولطفاً ينسبه كثيراً من الهمم الذي
يملاً فؤاده ، والحسرة على هؤلاء الناس الذين لا أمل له
في دفعهم نحو طريق الهدى ،

* * *

انتهى الامتحان بخير ، وانقضى بعده أسبوع ، ولم
يترك صلاح القاهرة لغياب عمه بالاسكندرية . فلما عاد
عمه عصر الخميس وجد الفرصة سانحة للاستئذان في
السفر ، وكان قد أعد أمتعته وكل شيء .

وعند ما انقضت مائدة العشاء جلس عمه يسأله عما
فعل في الامتحان . وبعد حديث قصير قال صلاح الدين :
— أرجوك يا عمي أن تسمح لي بالسفر غداً
إلى البلدة .

ونظر عمه إلى سقف الغرفة مفكراً ، يتذكر ما كان
يبلغه من أخيه عن عراك صلاح ونضاله مع رجال البلدة
في سبيل نصرته الحق والفضيلة ، وشدة معهم في الجدل
باللوم والتقريع . فأجابه بعد برهة بقوله :

— ألا تريد أن تريح نفسك قليلا هذه العطلة من
عناء النقاش والجدال ؟
— أى جدال يا عمى ؟

— جدالك مع رجال البلدة وشبانها ، وإعلانك
السخط على أعمالهم وتصرفاتهم بطريقة لا تخلو من الحدة
والتحدى ... ألا تعلم يا صلاح أن هذا ربما أدى بك إلى
ما لا تحمد عقباه ؟ . فقد يحمى وطيس الجدل يوماً إلى
درجة أخشى فيها عليك سوء معاملة هؤلاء الناس ...
إنك تنتقد أعمالهم وتلصق الاتم بأفعالهم . وتتوعدهم
بعذاب من الله ونقمة منه ، ولا تظن أن ذلك قد يهديهم
إلى الرشد أو سواء السبيل . فأنت لا تهتمهم فى كثير ولا
قليل لأنك لست بسيدهم ، ولا حكيمهم ولا شيخهم ...
فأرجوك يا صلاح أن توفر على نفسك هذا العناء ، وتحسن
إلى نفسك فقط بالعمل الصالح ، واترك غيرك يعمه فى
الضلال ، وهناك الله تعالى يحزیه الجزاء الأوفى . .

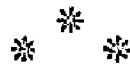
ولم يطق صلاح صبراً عند هذه العبارة الأخيرة
فقاطع عمه فى أدب قائلاً :

— عفواً يا عمى !. أنا لا أقصد قطع حديثك بالطبع ..

ولكن الدين أمر المؤمن أن يقوم المنكر بكل ما أوتي
من قوة مشروعة ، والجدل في الحديث لم يخرج عن تلك
الحدود . . . هل يعجبك يا عمى أن يعيث شبان القرية
فساداً فيها فينتهمسكون أعراض الناس ويدفعون بالفتيات
إلى الهروب من بيوت آبائهن والسقوط في هوة الرذيلة
والبغاء ، كما حدث مع بنت الصعيدي وبنت حسان ، ألم
تسمع يا عمى بكثرة تعدى أهل البلدة بعضهم على بعض ،
سواء بالسرقة والانتقام ، إنك تعلم أنها قرية جل أهلها
يعبدون الشر والأثم ولا يعرفون لهم طريقاً غيره وإني
لو أعطيت سلطة على هذه البلدة فلن أدع فيها رجلاً إلا
سقته إلى السجن متهماً بجرime الأثم والفجور و . . .

— مهلا يا صلاح مهلا ، أنا لا أريدك تعين إنساناً
على منكر كما فهمتني خطأ ، ولكني أخشى عليك أن
يؤذوك أو يعاكسوك ، وفوق ذلك فأنت تسافر إلى
البلدة صيفاً لتنشد الراحة والهدوء ، فما أغناك يا بني عن
هذا العناء الذي يصيبني منه قدر غير يسير من كثرة
شكواهم منك !! .

وعند ذلك أدرك صلاح السر في محاولة عمه أن يثنيه
عن ذلك العزم . . فقال في لهجة من يعطى عهداً :
— أشكرك يا عمي ، لحرصك على راحتي لهذه
الدرجة ، وأعدك أني لن أجلب لك ما تكرهه من جراء
هذا الحماس الذي اتصفت به وتمكن مني إلى حد كبير .
وتناول الحديث بعد ذلك موضوع رسالة من العم
إلى أخيه بالبلدة عن شئون الزراعة والمحصول .
وانصرف صلاح بعد هذا إلى غرفته ليضع في حقيبته
بضع مؤلفات في الدين والفلسفة استعارها من مكتبة
عمه ليقرأها خلال العطلة .



ولقد كان لحديث العم على صلاح أثر قوى ، فقد وهن
حماسه وتبدد عناده ، فكان يرى ويسمع ما لا تطيقه
عيناه وأذناه ، فيكبت الغيظ في أعماق نفسه ، ويستغفر الله . .
وانقضى الصيف أو كاد ، ورأى صلاح بعيني رأسه
كيف يلعب الشيطان برأس الانسان فيدفعه إلى اقتراف
أشنع الجرائم في رابعة النهار ، شأنه شأن الحيوان
المتوحش الذي لا عقل ولا ضمير له . رأى أحد أبناء

بلدته ، شاباً قوياً مفتول العضلات ، ينتقم لكل كلمة سباب
فاه بها أحد جيرانه ، فى حق أخته ، فيتربص له بين أعواد
الذرة فيمزقه إرباً بالسكين ، ولا يترك له من معالم وجهه
أو أطرافه شيئاً ، ثم إذا جاء والد المقتول يطلب تسليم
القاتل إلى السلطات اندلعت ألسنة الفتنة بين الأسرتين
فسقط فيها ثلاثة رجال مجندين .

وسمع صلاح بأذنيه عمدة القرية يطالب من شيخها
أن يغرى زوجة أحد الخفراء ، وهى فتاة جميلة هيفاء . قد
مرض زوجها ونقل الى مستشفى البندر . لتبيت فى بيت
العمدة حتى يعود زوجها ، وهو يتمنى فى ذلك أمنية سيئة
طالما تعب فى سبيلها كثيراً .

ثم هنالك مجالس الأتس وسهرات الحظ يجتمع فيها
فتيان القرية كل ليلة فيتجرعون سما يسمونه خمرًا ،
ويدخنون الحشيش ، ويضاجعون امرأتين من بغايا
البندر .

ومع كل ذلك ، فقد كان العجب يأخذ منه كل مأخذ
حين يرى مسجد القرية مليئاً كل جمعة بـؤلاء الأوغاد .
يرتدون ثياباً طاهرة فوق أجسادهم المذنسة ويقفون بين

يدى الخالق يقرأون القرآن ويؤدون فرض الصلاة ،
وعبثاً حاول هو وإمام المسجد أن يلقيا عليهم العظات
أو النصائح ، فى هجر المنكر وترك الفحشاء . وتقوى الله
فى أعمالهم . حتى تستقيم أحوالهم ، ويرضى الله عنهم . .
لقد كان يحزنه كثيراً أن يتماذى أهل القرية فى
طغيانهم ، وعمدتهم على رأسهم ، دون أن يجدوا وازعا
عن هذا الضلال والفجور ، ولم يكن يبقى على انتهاء العطلة
غير أسبوعين سيعود بعدهما إلى مصر مملوءاً بالحسرة
والحزن على ما بلغته بلدته من الفساد .

وكان كلما وقف يجادل أحدهم . ليصده عن سبيل
الغواية . تذكر كلمات عمه ، وخاف أن يبلغه الأمر .
فيمضى دون أن يتم النصيح أو ينتهى من صب اللوم
والتقريع على من أمامه .

وبعد ! . فماذا هو فاعل . هل يرسل إلى السلطات
بلاغاً بما يقترفه العمدة من انتهاك للأعراض واغتصاب
للحقوق ، وبما يفعله شبان القرية من محرمات ، وبما يحدث
كل لحظة من مفسد ورذائل . ؟ ؟ . كلا . انه سينصب
بذلك عداً مستحكما بين القرية كلها من ناحية وبين أعمامه

وعائلته من ناحية أخرى . كلا كلا . ليس هذا من الحكمة
فى شىء . . وإذن فلم يبق غير الصبر . . والله المستعان .

جلس صلاح صباح الخميس على ضفة القناة ، تحت
شجرة كافور ، يتصفح صحف الامس ليحرف أخبار
العالم وأحوال السياسة ، وإذا ببصره يقع على خبر غريب
اهتزت له ارجأؤه ، وسرى الرعب فى بدنه ، ولا عجب
فقد كان الخبر تكهناتنا بانتهاء العالم بعد يومين حين يصطدم
أحد الكواكب السيارة فى مداره بالأرض فيتهشم العالم
وتهلك الدنيا ومن عليها .

ولو كان هذا التكهّن صادراً عن فرد من عامة الناس
لكان الشك فيه أقرب من اليقين ولكن هيئة من العلماء
الفلكيين قد اتفقت عليه بعد أن تأكدت لها صحته بما
أجرته من التجارب فى قياس الزوايا والابعاد .

واختتم الخبر بأن الرعب سائد فى جميع الانحاء خشية
وقوع هذا الخطب العظيم .

ووضع صلاح الصحيفة أمامه واعتمد رأسه بين يديه
يفكر وقد أهمه كثيراً ذلك الخبر واستغرق كل مشاعره .

... وإذن فقد انتهى العالم .. وهلكت المخلوقات من
حيوان ونبات وجماد .. إذن فقد اندثرت الدور والقصور
واختفت معالم الطرقات والأنهار .. وزالت قوة الإنسان
التي سخرت لها من الماء والأرض والجو قوى تخدمها
وتخدم أطماعها .. إذن فقد دالت الدول .. ودال معها
مجدها وجيوشها وأساطيلها .. وأراضيتها .. وهلك الإنسان
الطاغى .. المنافق .. الذى بلغ به الطمع حداً يتغاضى الاستيلاء
على أكوام وعوالم غير الأرض .. ذلك الإنسان الذى
لم يدع مجالاً للشر إلا سلكه .. ولم يترك باباً لاشباع شهواته
إلا طرقه ، لا همه فى ذلك انتشار الفساد بين قومه وأمته
أو هلاك الأتوف والملايين من أمثاله من البشر . . .
الإنسان الذى لم يثنه عن عزمه شيء ، ولم يتقف فى طريق
إرادته شيء .. غير الموت .

إذن فقد ذهب الوجود وانعدمت وسائل الحياة ..
واختفت الطبيعة .. ولم يعد للشمس شروق أو غروب ..
ولا للقمر ضوء فضى جميل .

إذن لقد أذّن مُؤذنُ الفناء .. ولحقت الأرض
بالسواء ! .

لقد ورد في الخبر أن احتكاك الكوكب بالارض
ستسببه اضطرابات في الأجواء التي صيغت من عناصر
مختلفة .. فالأجواء المحيطة بالارض ستتخلط بالأجواء
المحيطة بالكوكب ، ويحدث من جراء ذلك تفاعل خطير
سيودي بحياة كل موجود

إذن فآية ذلك اليوم ، كما أخبر هؤلاء العلماء ، هي
التفاعل الخطير في الأجواء ، فاذا حدث ذلك فقل على
الدنيا السلام .

ولكن .. هل يحتمل أن يكون هذا التمكن غير
صحيح ؟ .. لم لا ؟ .. هل قد أوحى الله إلى هؤلاء العلماء
بميعاد يوم النشور .. وهل كان في مقدور أحدهم أن
يدخل في عالم الغيب .. فيدرك هذا السر الرهيب .. الذي
لا يعلمه الا الله وحده ؟؟ ..

.

وهكذا جلس صلاح ينظر الى الماء ينساب في هدوء
فتتمثل أمام ناظره كل هذه الاحوال فيهِز رأسه أسفا
ويتمتم أن لا حول ولا قوة إلا بالله ..
وعادت إلى ذهنه حسرتة على أهل قريته .. سيذهبون

جميعا الى الجحيم . فيذوقون عذاب الهون مما كانوا
يعملون . .

*
* *

لم يبق على نهاية العالم غير يومين اثنين . . فهل يعود
إلى القاهرة ليرى عمه وأطفال عمه الذين يحبهم الحب كله؟
أو يبقى في بلده حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً؟ .. وما
فائدة ذهابه الى القاهرة أو غير القاهرة ، . ما دامت القيامة
قائمة بعد بضعة عشرات من الساعات . . لا فائدة في أى
شئ . . لا فائدة في السير ولا في النوم ، ولا في السعى . .
ولا في الكلام . . لا فائدة في أى شئ . .!!

سبحان الله . . لقد كانت الساعة من علم الله وحده ،
وكان الأجل والقضاء في علمه وحده ، حتى يظل الانسان
راغباً في الحياة ، مقبلاً على السعى ، طامحاً الى تحسين
أحواله ، يملؤ بالامل في اليسر بعد العسر ، والشفاء بعد
المرض . . والقرب بعد البعد . . والشبع بعد الجوع ،
والفرح بعد الحزن . . ذلك من حكمة الله في تدبير الكون ،
سبحانه لقد وسعت حكمته كل شئ . .

.. أين يذهب صلاح والوقت لم يزل بعد ضحى ١٢..
ولم يبق على فناء العالم غير بقية الخميس ونهار الجمعة ؟
قد يكون من الأصوب أن يسرع الى الشيخ فراج
رجل القرية الصالح ، وإمام مسجدها ، ليخبره بالأمر ،
ويرى ماذا هو قائل .

*

* *

كان الشيخ فراج يجلس في فناء داره على مقعد خشبي
طويل قد صُفِّت عليه بعض الوسائد ، ويده القرآن
يتلو منه بضع آيات .

وعندما وصل صلاح كان الشيخ يقرأ في سورة النجم
في نغمة خاشعة :

« ... وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف
يُرى . ثم يُجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى ، وأنه
هو أضحك وأبكى وأنه هو أُمات وأحيا ، وأنه خلق
الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفةٍ إذا تُمْنى ، وأن عليه النشأة
الآخرة ، وأنه هو أغنى وأقنى ، وأنه هو رب الشعري ،
وأنه أهلك عاداً الأولى ، وتمد فماً أبقى ، وقوم نوح من

قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى، والمؤتفكة أهوى، فغشاها
ما غشى . فبأى آلاء ربك تتماهى ، هذا نذير من النذر
الأولى ، أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ،
أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ،
وأنتم سامدون . فاسجدوا لله واعبدوا . »

وكان صلاح ينصت الى الشيخ يتلو هذه الآيات
فيكاد يخر ساجداً من خشية الله . . . فاذا بلغ الشيخ
ختام السورة خيل لصلاح أنه يسمع وحياً سماوياً ينذر
الناس بقيام الساعة وأن ليس لها من دون الله كاشف
ولا معين !

وعند ما قام الشيخ لتحية الفتي روعه ما أحس من
ارتجاف يده وبرودة أصابعه ، وما رأى من فزعه
وذهوله ، فبادره بقوله :

— مالك يا بنى ؟ أنت مريض ؟ أم ماذا حدث ؟ !!
ولم يحر صلاح جواباً بل مد يده فى تؤدة إلى
جيبه وأخرج الجريدة وناولها للشيخ مشيراً إلى وسط
الصحيفة بأصبعه

وأول ما خطر للشيخ أن أحداً من عائلة صلاح قد

غادر الدنيا فتجهم وجهه ، ولكننه ما كاد يرى عنوان الخبر حتى تبدد قلقه وانطلق يقرأ في هدوء .

ومضت برهة وصالح يترقب وجه الشيخ في لهفة ليرى مدى تأثير الخبر عليه ، ولكن ذلك الوجه لم يشحب ولم يصفر ، ولم تبدُ عليه علام العجب أو الفزع . ولا غرو فنفس الشيخ قد تعودت الصمود في أقسى الظروف ، وقد خلع عليه مر الزمن قوة في ضبط النفس وشجاعة في شتى المواقف .

خلع الشيخ منظاره بتؤدة فوضعه في كيسه الجلدي ثم التفت إلى الشاب ، ونظرات عينيه تنذر بأمر هام .

— أظن هذا الخبر قد أهمك كثيراً واستولى على عقلك يا صلاح منذ اللحظة التي قرأته فيها ، والحقيقة أن هذا الأمر لا يعلمه إلا الله وحده ، واحتمال وقوعه أمس أو اليوم أو غد شيء معقول ، لولا ما روى عن بعض الفقهاء القدماء من حدوث علامات أو أمور تنذر عنه ، ولقد تقدم العلم الحديث وبلغ بحث الإنسان درجة بعيدة تساعد كثيراً على درس الظواهر الطبيعية ، ومعرفة مواعيد حصولها مثل كسوف الشمس وظهور الكواكب

وانتقالها في أبراجها . فلا عجب إذن إن أدرك العلماء سرّاً
كهنذا ، فأنذروا العالم بنهايته .

وليس يدفعني يا بني إلى المضي في هذا الظن إلا رؤيا
رأيتها بالأمس ، فأزعجتني كثيراً ، وما زلت أقلب أمرها
في عقلي فتعتريني حيرة شديدة ! ...

ولم يطق صلاح صبراً على ما سيقوله الشيخ بل قاطعه
متلهفاً :

— وما ذا رأيت يا عم الشيخ ؟ . . 1 .

— رأيت كأن السماء احمرت من فوق قريننا
احمراراً شديداً ، ليس كمثل احمرار الشفق بل كالون
الدماء ، ثم تساقط المطر في قطرات حمراء كالدم ، واسود
الجو وأظلم ، وامتلاء برائحة خائقة ، واستيقظت فزعا
أكاد لا أدرك أنفاسي . . . والذي يحيرني يا بني هو أن
رؤياي يتحقق منها الكثير . . . ولست أدري كيف أعلل
هذه الرؤيا الغريبة !! . .

فأجابه صلاح في ذهول :

— إذن فلعل الصدق ما قال هؤلاء العلماء ، وحينئذ

فلم يبق غير أن نجشو را كعين نطلب العفو من الله على ما أخطأنا ، واللفظ فيما قضى به . . .

ومسح الشيخ بكفه على جبهته مستغفراً الله ومستعيناً به ثم قال :

— لقد بلغ العالم يا بني درجة خطيرة من الفساد والفجور ، وقرب اليوم الذى يحاسب فيه المجرمون على ما جنت أيديهم . . لقد غرهم ما رأوا من عظمة الكون والعمران ، وحسبوا أن الله الذى خلق كل هذا ، سترك الانسان سدى ، فلا حساب ولا عقاب ، ولا بعث ولا نشور ، وقالوا ما هى إلا حياتهم الأولى وما يهلكهم إلا الدهر ، ونسوا أن الذى خلقهم من نطفة تمنى هو القادر على أن يبعثهم من مراقدهم مرة أخرى ، فيجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويعذب المنافقين والكافرين عذاباً شديداً .

وساد بعد ذلك صمت طويل قاطعه الشاب بقوله :

— هل تظن يا عم الشيخ أن من الأفضل أن نخبر أهل القرية بالامر الآن حتى يتفرغوا إلى الاستغفار ، ولعل الله يخفف عنهم من عذابه . . إنهم قضوا أيامهم فى

عبادة الشيطان والاثم ، فاستحقوا غضب الله ، ولكن
رحمته قد وسعت كل شيء ، وهو يغفر الذنوب لمن يشاء .
— يا بنى ، لا أظن التوبة تنفع فى هذا الوقت ، قرب
انقضاء الأجل ، وإنما هى خداع يلجأ اليه الانسان المنافق ،
ولكن من الذى يخدع ؟ !

— إذن أفلا نخبرهم بالامر ؟ .
— دع ذلك حتى غد ، حينما يجتمع هؤلاء المنافقون
فى المسجد ، لأداء الصلاة ، فنفاجئهم به ! .

* * *

امتلاء المسجد ظهر الجمعة بالرجال والشبان والأولاد
لأداء فرض الصلاة ، سيراً على التقاليد ، وأذن المؤذن
وخطب الخطيب خطبة طويلة فى البعث والنشور ، ثم
أقيمت الصلاة ، وفرغ الامام فسلم عن يمينه ويساره ،
وتبادل المصلون تحية الختام وتحركوا بغية الوقوف
للاصراف ، وإذا بصوت يدوى فى أرجاء المسجد صائحاً
كأنه النافخ فى الصور :

— أيها الناس !!!
وتلفت الكل فى دعر يبحثون عن الصائح ، وكان

صالح يقف أمام باب المنبر ، فاتجهمت اليه الأنظار من كل صوب .

— عندى لكم نبأ شؤم ! ستفزعون له أو ستبتكون إن كان فيكم بقية من إحساس أو شعور ، هل بلغكم أن القيامة قائمة في هذه الليلة ؟ . وأن هذا هو ما أثبتته علماء الفلك ، رأوا بمناظيرهم المكبرة أن كوكبا يقترب من الأرض وسيصطدم بها في ميعاد غايته صباح الغد ، فيفنى العالم وينتهى السكون . وقد كتبت جرائد الأهراس طويلا عن هذا الحادث الهائل فوصفت فزع الناس في جميع البلاد ، وها أنتم أمام الأمر الواقع . . حين لا ينفع ندم ولا تفيد توبة ، لقد أخطأتم وأثمتم ، وكان أكثركم فجرة فاسقين ، فانصرفوا الآن إلى بيوتكم أو ابقوا في أماكنكم فلا فائدة اليوم في نصيح أو وعظ ، فقد فات الوقت ولم يبق غير يوم ، ثم ترجعون إلى خالقكم ، ثم يبعثكم ليحاسبكم على نفاقكم وفجوركم . . وليس الأمر بهنذر أو تهويل ، وإنما هو الجد بعينه . . وإن غداً لناظره قريب . .

فليذهب الذى أوتمن على أمانة فيوفىها إلى صاحبها كاملة ، وليذهب الذى عاهد عهداً فيفنى بعهدده . . اذهبوا

فأدوا الحقوق الى أصحابها ، واطلبوا السماح ممن ظلمتم ،
لعل الله يخفف عنكم بعض ما ستلاقون من عذاب
أليم .. عظيم !

إن هؤلاء العلماء - وهم من بلاد مختلفة - قد اتفقوا
على رأى واحد ، وهو حصول تفاعل جوى خطير ، قبيل
اصطدام الأرض بالكوكب ، فيهلك الناس والأموال
جميعاً ، ثم يتشم هذا العالم ويتطاير في الفضاء ، إلى حيث
لا يعلم إلا الذى خلقه وكونه .. »

ووجم الناس جميعاً وكأن على رؤوسهم الطير ، ومن
عجب أن الخبر قد هز قلوبهم هزة عنيفة ، وخصوصاً عند
ما لوح لهم صلاح بالجريدة ونشر أمام أحدهم الخبر
فقرأه على الجميع بصوت عال .

وعند ذلك وقع ما لم يكن فى حسابان أحد .. فما
كاد قارئ الخبر يفرغ من حديثه حتى طرق أسماع القوم
من خارج المسجد صفير ريح عاتية تعصف منذرة بالويل
والشبور ...

ولقد حدث ذلك بسرعة غريبة . حتى لكان الريح
قد انطلقت من مريضها فجأة ، فجمحت جموحاً شديداً ،

وما لبث الجوارح أن اصفر ثم أظلم ومالت جذوع الأشجار
تنحنى وجلا من قوة العاصفة . . .

وشحبت وجوه الذين وقفوا داخل المسجد، وارتجفت
أبدانهم ، وأيقنوا أن ما سمعوه لم يكن هذراً أو تخويفاً ،
وأن قد حُسم قضاء الله الأكبر

واعترى الجميع جنون الفزع ، فصاح أحدهم مرتعداً :
« اللهم ارحمنا واغفر لنا . . . واعف عنا . . . » وصرخ
الآخر : « يا رب إنى أتوب إليك من كل الذنوب فاقبل
توبتي ! . . . » . وارتفعت الأصوات تتوسل إلى الله أن
يغفر وأن يرحم وأن يتوب . . . وتحدثت الدموع
على خدود الرجال .

ودقوا أكفهم أسفهاً ، وحاروا في أمرهم ماذا
يفعلون . . . إنهم بعد قليل ميتون . . . ولقد فات الوقت
فلم يتزودوا للآخرة بعمل صالح ، وقضوا أعمارهم في
السعى وراء أمور الدنيا ، ونسوا الله والنشور والحساب ،
فأنساهم أنفسهم . . . وحق عليهم الويل وعذاب الجحيم .
لم يفكر أحد منهم في الخروج من المسجد والعودة
إلى بيته لرؤية أهله ، فما كان هؤلاء ليعيدوا إليه رحمة ربه

ومغفرته ، وإنما هي الأعمال الصالحة . . وأين لهم ذلك
في اليوم الأخير ، أين لهم أداء الصلاة ، شكراً لله ،
التي أوجبها عليهم في كل يوم من حياتهم ، وأين لهم
رمضان يصومونه ، وعيد الفطر يزكون فيه . . . أين
لهم العهود فيوفوا بها ، والأحاديث فيصدقوا فيها ،
والأمانات فيؤدوها ، والأعراض فيصونوها . . . أين
لهم الأيتام فيوفوهم أموالهم دون اغتصاب ولا اغتيال ،
وأين لهم من الزمن حياة أخرى ليهجروا الخمر ويتجنبوا
الزنا ، ويتبعدوا عن الأثم والفجور ، والكبر والظلم
والطغيان . . . إنه يوم واحد ، سينتهي فيه العالم ، فلن
تعود الشمس تشرق على الأرض ، ولن يعود النهار
يهزم الليل ، ولن يعود الإنسان حراً يفعل ما يريد .
صعد الشيخ الامام فراج الى منتصف المنبر ثم أشار
للجميع بالهدوء وقال :

« إن الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما
هو وحده القادر على إهلاكهما حين يشاء ، وقد بلغكم
وبلغنا ما يقوله هؤلاء العلماء الفلاسكيون ، ثم ها هي العاصفة
تهب والجو يسود ، والنبوءة تكاد تصدق ، وليس أمامكم

الآن غير ضئيل من الوقت، حتى يقضى الله أمراً كان
مفعولاً ، واني أرى أن يسرع كل منكم فيؤدي لكل
ذی حق حقه ما أمكنه ، من الحقوق التي تعلق برقابكم
ومن عجز منكم عن ذلك فإله سوى استغفار الله . . هيا
انفضوا الى بيوتكم فأقيموا بين أهليكم وانتظروا القضاء
الأعلى . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . . »

وخرج الجمع من بيت الله يتسابقون قبل فوات الوقت ،
وأسرع عمدة البلدة وشيخها ليتصلا بالمركز ، ويتبيننا
جلية الأمر ، فألفيا « التليفون » معطلا والأسلاك قد
تقطعت من شدة الرياح ، ولا وسيلة عند ذلك غير عبور
النيل ، وتلك كانت مستحيلة وقتذاك . . .

أما الشيخ فراج والشباب صلاح فقد ظلا وبقي معهما
بضعة من كهول البلدة . . . والتف الكل حول الامام
يستفتونه في ذلك الأمر الجلل . وسأل أحدهم وهو كهل
بلغ السبعين وما زال محتفظاً ببقية من نشاطه :

— أخبرنا يا شيخ فراج . هل يدخل المسلمون جهنم ؟
— لقد وضع الاسلام للمسلمين حدوداً يلزمونها ،
أقرها الشرع وقالت بها السنة ، فمن لزم هذه الحدود

فصلى وصام وزكى وحج وصدق الناس عهداً وحديثاً
واتقى الله وآمن برسله وكتبه وبالبحث والحساب فقد
عوفي من عذاب النار وكان من أهل الجنة والنعيم . ومن
خرج عن تلك الحدود فله عقاب على قدر إثمه ، ولا يبعد
أن يكون من أهل السعير ، ولا يكفي المسلم أن ينطق
بالشهادتين ، أو يصلى . . أو يؤدى بقية فروض الدين
الحنيف . ثم يكذب ويخدع ، ويشرب الخمر ، ويخون
العهد ، ويدس لأخيه عند صديق أو رئيس ، ويفعل
ما حرمه الله . فهو بذلك ليس بمسلم ، وإنما منافق فاسق
حق عليه غضب المولى وعذابه الأليم . . . وإن كل فرد
من البشر فى هذا العالم الكبير الهائل سيحاسب على أعماله
فمن فعل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن فعل مثقال ذرة
شراً يره ، وإن يظلم الله الناس يوم الحساب .

وما كاد الشيخ يصل الى قوله هذا حتى طرق الاسماع
عويل نساء يننن بوقوع شر مستطير . وأسرعوا الى الطريق
فراعهم ما رأوا من ظلمة الجو وعتو الرياح ، ثم لمحوا عن
اليمين دخاناً شديداً يعلو أحد البيوت فأيقنوا أن هناك
حريقاً . . .

وأى حريق !! لقد اشتعلت النيران فى بيت زعيم القوم
عمدة البلدة ، وحملت الريح قبساً من اللهب تشعل به بقية
البيوت وكأنما يد بشرية تمر فوق القرية فتضع اللهب
هنا وهناك بسرعة هائلة ، يساعدها تماثل الارتفاع فى المباني .
وأسرع الذين تخلفوا بالمسجد الى بيوتهم ليروا ما حل
بأهلهم ، وجرى صلاح الى بيت عمه فألفاه هو وزوجته
يسرعون بعيداً عن البيت الذى لم ينبج من ألسنة اللهب
المستعرة . . .

وتعالت صرخات النساء وولولتهم ، وانتشر مع اللهب
خبر قيام الساعة فسلم الناس أمرهم للقضاء ولم يبدو احراكا
لاطفاء النيران ، وتركوا متاع الحياة الدنيا تلتهمه النار ،
وخرجوا زرافات يصرخون ويبكون الى جهة الحقول .
واشتدت العاصفة ، وتعالت اللهب ، ووقف القوم
من بعيد ينظرون الى قريتهم تأكلها النيران ، ثم الى
أكوام القمح تصير هشيماً تذروه الرياح !
لقد آمنوا وصدقوا بما قيل لهم فى المسجد عن قيام
الساعة ، وكذلك آمن الامام فراج ، وبجانبه صلاح
وعمه العجوز . . وركع الكل على تراب الطريق وطين

الأرض راغبين أ كفههم يضرعون الى الله غافر الذنب قابل
التوب، ولقد كان أهدأهم بالا وأقلهم بكاء ذلك الشيخ الصالح
والشباب التقى . . .

وتلفت صلاح حوله ليرى ماذا يفعل هؤلاء الناس،
وكيف يقابلون ذلك اليوم العسير وماذا تفعل النساء
اللاتى جلسن فى ناحية وحولهن الصبيان والأطفال فرأى
الدموع تسيل على الوجوه ، والأفواه تتمتم فى حرقة
وتوسل وخشوع . . .

ورأى عيناً من أعيان القرية يتناول يد أحد الخفراء
فيقبلها ويتوسل اليه أن يسامحه، ورأى آخر قد غفر وجهه
تراب الأرض من طول السجود ، ورأى شيخ البلدة
يجول بنظره باحثاً عن عبد المتعال الفلاح الفقير فيسرع
نحوه ليؤدى اليه ثمن ما اغتصبه منه من ذرة وقمح وشعير
ثم رأى امرأة تصيح فى جنون تنادى زوجها من بين
الرجال ، فتجرى اليه وتمسك بذراعه وتطلب منه الصفح
عن أثم قد اقترفته فى حقه ، ولا يريد الرجل أن يصفح
قبل أن يعرف ما هو الأثم فتخبره فى صوت يكاد يقطر
من نبراته دم قلبها أنها اقترفت فى حقه جريمة الخيانة

العظمى !.. ولكن الرجل يدفعها بعيداً عنه فتسقط في
الطين باكية مولولة ...

أصاب الناس جنون الساعة ، فأخرج كل منهم
مكنونات نفسه يطلب الصفح من ظلمه ، وتحركت
الأسنن بما فعلت الأنفس ، وانقلبت دخائل القلوب
ظواهرا ، وعرف زيد ما فعل عمرو ، وعلم بكر ما اقترفت
هند ، وتكشفت الخيانة ، وظهر الغدر ، وفضح الله القوم
بما فعلوا ، والله هو المنتقم الجبار ...

وظلت النار تأكل حرثهم ومتاعهم حتى أصبحت
القرية قاعاً صفصفاً لا خير فيها ولا حياة ...

وظل القوم في ذهول لا هين بالاستغفار لا يهمهم
ما وقع بأموالهم من هلاك ...

وظلت الريح تعصف وتشتد فتندلع السنة اللهب هنا
وهناك فتأق على ما بقي بلا حريق ...

وأظلمت الدنيا ظلاماً حالكا خاله الناس نذير الطامة
الكبرى فاشتد استغفارهم وطال سجودهم وبقي الظلام محلقاً
فوق رؤوسهم ، والريح تصفر من بين أيديهم ومن
خلفهم ، واللهب تتراقص أمام أعينهم ...

داموا على تلك الحال ساعات وساعات ، وغشى
بعضهم النوم وهم ساجدين ، ثم بدأت الريح تهدأ شيئاً
فشيئاً ، حتى سكنت حركة الهواء . . .

وما هي إلا برهة بعد هذا حتى لاح من ناحية الشرق
ضياء ، وتبدد الظلام .. ثم برزت الشمس من وراء الأفق
البعيد . فأضاءت العالم بنورها الذي يبعث النشاط
والحركة في الوجود ويحفظه الحياة في كل موجود .

وذهل القوم مرة أخرى ذهولا أشد وأنكى !!
فهاهو العالم حتى لم يهلك بعد ، وهاهي الشمس طالعة
والسما زرقاء ، والطيور تحلق فوق رؤوسهم ، ونسيم
الصباح يهب عليلا من جديد ..

لقد فاتت الساعة التي أنذر بها المنجمون .. وانقضت
بعدها بضعة ساعات ، وسلم العالم من الهلاك ومضى
الكوكب في مداره دون أن يمس الأرض بسوء ..
لقد أطال الله في أعمار القوم . بل في حياة الكون
وعادت أجنحة الأمل ، ترفرف على نفوس البشر ..

تبادل القوم نظرات الشك يخالطه اليقين لا يكادون
يصدقون أنهم أعطوا الحياة من جديد ، ليحيوها مرة

أخرى فيكفروا عما اقترفوا من سيئات، ويتبعوا طريق الهدى والسلام ..

ولكن !: بيوتهم وأموالهم .. لقد هلكت واختلطت بالتراب .. فماذا هم فاعلون !؟ ..

الحق أن ذلك لم يكن يستولى على مشاعرهم كل الاستيلاء ، بل إن اطمئنانهم على بقاء الحياة وعودة الوجود قد خفف كثيراً من حسرتهم على ما أدركهم من أذى وويل شديد لم يروه ولم يحلموا به من قبل . كل ذلك في ليلة واحدة . جزاء بما كانوا يعملون .

وظلت الشمس تسطع وهم قعود ، لا يكادون يصدقون أن قد كذب المنجمون ، وأن الساعة من علم الله وحده لن تقوم إلا باذنه ، وحين يشاء ، وأن علم الإنسان ما كان في منتهاه ليبلغ قطرة من بحر علم خالق الكون ومدبره . ولاح في أقصى الأفق رجل يمتطي حمارة وحين دنا رأوا فيه ساعى البريد ، وقام الرجال إليه وفي مقدمتهم عمدة القرية وشيخها ، وقد قرح عيونهما بالبكاء !.

ودهش الرجل حين اقترب من القرية فوجدها خراباً بلقعا . لا يزال الدخان ينبعث من بين جدرانها المحترقة ،

وذهل حين شاهد كل أهلها يجتمعون بعيدا عن بيوتهم في
أحد الحقول الجرداء .

وكان أول ما بادر به من الحديث سؤال العمدة عن
حالة البندر ، وأجاب الرجل أن الحال عادى سوى أن
رياحا شديدة هبت بالأمس وهدأت حول منتصف الليل .
وسئل عن خبر قيام الساعة الذي ظهر بالصحف
فأجاب أن الناس لم يعيروه كثيرا من الاهتمام لسبق
وقوع مثل هذه التنبؤات وعدم تحققها .
وأضاف الرجل المذهول مستفسرا :

— ولكن ماهذا كله يا حضرة العمدة ؟ . انى أرى
النار قد أحرقت البلدة فتركتها فحمة سوداء ولم يبلغ البندر
أى خبر ، فكيف كان ذلك ؟ !

ونظر اليه العمدة شارد الفكر ثم قال :

— لقد بلغنا ذلك التنبؤ بأن الساعة قائمة ليلة أمس .
وأن الجو سيحدث تحول خطير سيهلك كل شيء ، فلما
هبت العاصفة واشتعلت النيران ، حسبنا ذلك مظهراً من
مظاهر قيام الساعة ، وقد انعدمت بيننا وبين البندر
المواصلات التليفونية بفعل العاصفة ، ولم نبال بما تحدثه

النار في البيوت والأموال ، وتركنا المواشي تنطلق إلى
حيث تريد ، وقضينا الليل كله راكعين .. في هذا الحقل ،
حتى أشرقت الشمس .. وعادت الحياة تدب في الكون .
ثم تنهد العمدة والتفت إلى شيخ البلد قائلاً في نغمة
خاشعة مؤثرة :

— لا حول ولا قوة إلا بالله . لقد ابتلانا الله تعالى
بما نستحق من جزاء ، واليوم نبدأ حياة جديدة ، وقد
تظهرت نفوسنا من رجس الشيطان .

* *

وفي الصيف التالي جاء صلاح الدين من القاهرة ،
وأفعم قلبه بالسرور ، وتحرك لسانه بكلمات الشاء لله ، حين
رأى مكان القرية المحترقة بيوتاً جميلة بيضاء ، قد تراصت
في نظام هندسي بديع ، وقام في وسطها مسجد كبير جميل ،
يحيط به متنزه واسع مزدهر ، وقد قامت الحكومة ببناء
كل ذلك على نفقتها على أحدث النظم والقواعد الصحية
... ويسكن هذه البيوت رجال ونساء وأطفال ، لا تقل
قلوبهم بياضاً عن حليب الأبقار ، ولا ضمائرهم صفاء
ولا نقاء عن زرقة السماء ...

مصرع اخرى

لا بد للانسان من ضجعة
لا تقلب المضجع عن جنبه
يلسى بها ما كان من عجبه
وما أذاق الموت من كربه
نحن بنو الموتى ، فما بالنا
نعاف ما لا بد من شربه
« المتنبى »

... ترقد فى نواحي الفؤاد ذكريات حزينه، قد تجملت
بالسواد، وخيمت حولها الرهبة، وألبسها اليأس لباس الحزن
والجزع، فأقضت المضجع بشوك من الكرب والكدر...
هى ذكريات أولئك الذين فقدناهم فى ميدان الحياة .
أولئك الذين جذبتهم يد المنون . . إلى حيث لا نرى لهم
جسداً ، ولا نسمع صوتاً ، ولا نحس وجوداً . . . اللهم
إلا فى قلب الليل ، حين تغفو الأجفان ، ويصرع النوم
الأجساد ، وتسبح الأرواح فى عالم الأحلام . . .
إننا فى هذا العالم المملوء بالشرو والاثام، والأحزان
والأكدار، والحسد والبغضاء، والدس والكبرياء،

لا ندرك لشخص قيمته ، ولا نقدره حق قدره ، حتى
إذا اختفى بين طيات الزمن ، وانطوى بين أمواج الأجل ،
ندمنا على ما فرط منا في حقه ، ظلماً وعدواناً ، من سوء
في معاملة ، أو اتهام باطل ، أو سورة غضب ظالمة ، فإن
لم يكن هنالك من ذلك شيء ، كانت الحسرة حسرة على الفراق ،
وعلى ما خلف من قلوب منفطرة ، أو نفوس ثكلى ، أو
عيال بين براثن الفقر والحاجة .



... عبوس ذلك اليوم القاسى ، الذى فقدت فيه
أخى . . فقد كان قتي ممتلئاً بأمل الحياة والمستقبل يطرق
أبواب الدراسة العالية ، طاهر النفس ، والضمير ، حسن
الأخلاق ، حلو السمائل ولكن الموت نقاد ، على
كفه جواهر يختار منها الجياد

خرج أخى صباح يوم من أيام الصيف ، على أثر
جدال قام بينى وبينه حول موضوع تافه لا قيمة له ، خرج
دون أن يتذوق من طعام الإفطار شيء . . خرج ليتمشى
نحو قرية المعادى التى تجاورنا . . ليتنسم الهواء . . بين
الأشجار والحقول . . .

ولم ينقض على خروجه أكثر من ثلث الساعة حتى
طرق باب بيتنا صبي . . . وأجبت الطريق . . . فابتدرني
بالسهم قائلاً . . . « لقد صدم القطار أخاك . . . ! »
ولن أنسى تلك الصرخة ، التي صرختها يومذاك في
غناء البيت . . . وتجاوبت أصدائها الجدران ، وتلك
الرعدة التي سرت في أنحاء بدني فكهرت حواسي وملاّتنى
بجنون الحسرة واللهفة .

وانطلقت بثياب البيت . . . وبالنعل الجلد في قدمي
وأخذت أعدو كالمجنون نحو المعادى . . . يا إلهي ! . . .
اللهم إني استغفرك فأنت أحكم الحاكمين . اللهم لا اعتراض
على قضائك . . . ولكنه أخى ! . . . أخى الذي خلقته بعدى ..
أخى الشاب .. أخى الحبيب .. يصدمه القطار . . . بلا
رحمة ولا شفقة ..

ربي ! . . كيف أجده ؟ هل مات ؟ أم بتر له عضو
واحد فلا يزال على قيد الحياة ؟ . . . وهل هو حقاً أخى
الذي صدمه القطار ؟ . أم هو شاب آخر .. اللهم لطفك
ورحمتك ، بالناس جميعاً ! . . .

يا إلهي ! . . إنك تعلم أن أفئدتنا ما زالت تندب أختنا

منذ بضعة أشهر ، وأن أمتنا قد تقرحت عيناها من فرط
البكاء .. وان أبانا ما فتيء حزينا كئيباً ..

رباه .. لطفك ورحمتك .. إني مؤمن .. فلا شأن
للموت بسن الانسان .. فهو يدرك الرضيع والكهل ..
وإنما هو قضاءؤك سبحانه إذا أردت شيئاً ، أن تقول له
كن فيكون ...

وعلى بعد بضعة أمتار لاحت أمامي زمرة من الناس
يتزاحمون حول جسد ملقى على الحشائش بجانب قضبان
القطار ..

وتقدمت وأنا ألث نحو الزحام .. ولحت في الجسد
الملقى وجه أخى .. وذراعيه .. وساقيه .. وبقية جسده ،
لم يبتز منه شيء .. ولم يمس عضو بسوء ..

ولكن دمائي جمدت في عروقي .. واختلج قلبي في
نبضه حين دنوت من الجسد فسمعت شخيراً عالياً يخرج
من حلقه .. والدماء تتدفق بشدة من أذنيه .. وأنفه ..
وفمه ..

عفواً .. ففضاعة المنظر لا تدع لي مجالا لوصفه ،
فكل كلمة أكتبها عنه تحز في صدري حزاً .. وتملاً ..

فؤادى حسرة وأسى . . وتفتح الجرح الشخين الذى لما
يندمل منذ ذلك اليوم .

وأخذت رأسه على حجرى أناديه فى لهفة . . ولكن
الصدمة الشديدة فى خلف رأسه : أفقدته حراسه . . فلم
يجب . . ولم يفتح عينيه . .

وظللت حائراً فيما أفعله لأوقف الدماء النازقة
والشخير المؤلم . . حتى وصلت سيارة الإسعاف

وحملوه الى داخلها . . وجلست بجانبه أقرأ فوق رأسه آية
الكبرى وسورة الاخلاص ، لعل فى ذلك نجاة له أو حياة
وفى إحدى قاعات القصر العينى دخلت بثيابى
المصبوغة بدمائه الطاهرة الشهيدة ورأيت ممدداً عارى
الجسد ، فوق منضدة طويلة عالية ، يحيط بها ثلاثة من
الأطباء . . يراقبون حركة التنفس .

ولما كان قضاء الله تعالى فوق كل قوة أخرى . .
فقد تلاشت أنفاس أخى المسكين ، وسكن نبضه ، وذهبت
روحه الشهيدة الى العالم الآخر . . المجهول . .

لقد توسلت الى الأطباء أن يبذلوا ما فى وسعهم
لإنقاذه ، ولكن أحدهم أجابنى أن مقدار الدماء التى

أنزفت منه كبير ، وأن الصدمة خلف الرأس قد حدثت
في مخه ارتجاجاً شديداً تستحيل معه عودة الإدراك والحس .
واقتربت من جسد أخي العاري .. فهمست على رأسه
الفاتحة ، وذادرت القاعة خافض الرأس . . أكاد
لا أصدق أن ما حدث كان حقيقة واقعة . .

- لا حول ولا قوة إلا بالله . . في ساعة واحدة . .
فقدت أخي . . ورأيت يته يتلاشى بين يدي . . وبين يدي الأطباء . .
وليس في وسع أحد أن يؤخر ما قضت به إرادة الله العظيم .

وأمام أبواب القصر وجدت أبي وحوله بعض
الأصدقاء ، ينتظرون حكم القدر على لسباني . . وكنت في
ثيابي المملطخة بالدماء وخطراتي المرتعشة ووجهي الشاحب
الملتقع أبلغ معبر عن قضاء الله ، فانطلقت الدموع من
عيني أبي في وجوم وأخفى وجهه بين يديه . .
وفي أحد أركان بناء جديد مجاور . . ارتديت ثياباً
وحذاء أحضرها لي من البيت صديق ، ثم عدت فجلست
بجانب أبي أعزيه ، وأذكره بوحدة الأجل . ونفاد
القضاء . . ووجوب التسليم لله . .

وفي صباح اليوم التالي أعد الكفن والنعش، وذهبت
لاستلام الجثة من داخل القصر، لتشيعها الى مقرها
الآخر، وقد تخلف أبى عن الحضور، إذا عتراه من
فرط الحزن اضطراب عصبي شديد

والحمت عليه بالبقاء فى البيت، لتجوز الحيلة على
أمننا المسكينة، فقد أخبرناها أن أخى لا يزال يعالج وأن
الزيارة ممنوعة وقتئذ...

* *

... قف شعر رأسى فزعاً حين خطوت الى تلك
الغرفة المروعة.. غرفة الجثث، لأستلم جثة أخى. فلقد
تراصت أجساد الأموات. عارية صفراء اللون على أرفف
طويلة داخل دولا ب كبير. يطلقون عليه اسم «الشلابة»
ولقد كدت أخفى بصرى يدي وأولى هرباً من شدة
فضاعة ما كنت أرى هناك.. لولا أن تقدم الرجل
المختص، فحمل جثة أخى برفق بمعاونة «الحانوتي» الذى
باشر بعد ذلك إعداد النعش...

يا إلهى! كم فى هذه الدنيا من مصائب وأهوال..
ومع كل ذلك يتمسك الانسان بها، وبأمورها، ويحارب
من أجلها.. فما أعلى حكمتك.. وما أعظم تدبيرك...

وسار خلف النعش عدد غير يسير من المشيعين . .
وكأن الله تعالى أوحى الى بعض المارة أن من يرقد في
ذلك الكفن شهيد ، فكانوا يتقدمون واحداً بعد الآخر
ليشتركوا في حمل النعش برهة من الزمن . . ثم ينضمون
الى زمرة المشيعين . . .

. . . وهناك وراء سفح القاعة . . بين قبور الممالك .
وورى أخى التراب مأسوفاً عليه . . ولقد كان يتجول فى
تلك البقعة عينا منذ يومين ، مع بعض من أصدقائه
خرجوا فى رحلة الى تلك الأمكنة ، فما أقسالك يادهر . .

*

* *

واليوم وقد انقضت أربع سنين على تلك الحادثة
المروعة . . لم يمض خلالها نهار واحد . . . إلا دعوت
الله فى كل صلاة ، بالرحمة والسعادة لروح أخى فى العالم
الآخر . . . وإنه ليخيل الى ، أن الله كان راضياً عن هذا
الشقيق ، إذ قد أوحى الى عبده مسلم من عباده أن ينشئ
عند البقعة التى سقط فيها أخى مخرجاً بدمائه . . مصلى
ليذكر فيها اسم الله قبل طلوع الشمس وبعد الغروب . .

ثورة في سين

شرر من أتون الجهاد القومى
فى سبيل الاستقلال . . .

فى أحد أيام سنة ١٩١٩ ، تلك السنة التى سطرها
المصريون فى صحائف التاريخ بأحرف من دماء شهدائهم
ونور وطنيتهم وإخلاصهم ، كان صوت الحماس القومى
يسمع صدهاء فى قرية من قرى القطر ، اشتهرت بسجنها
الكبير ، الذى يستغرق نصف مساحتها . . . والذى يعتبر
بحق أكبر سجون مصر وأهمها شأنًا .

خرج صبيان طرة من مدرستهم الأولية ، مضربين
عن حضور الدروس . . . وتجمعوا عند شاطئ القناة
ليظهروا حماسهم للوطن المسكين . . . وليشتركوا فى حمل
شعلة الجهاد التى أضاءت أنحاء مصر فى ذلك الحين ، ولم
يكن هؤلاء الصغار Liebaوا بالحشد الكبير الذى جمعته
السلطة المحتلة وقت ذلك فى شمال البلدة من جنود
المستعمرات - هنود وإستراليين - بكامل أسلحتهم

ومدافعهم ، متحفزين لقمع حركات المصريين ، ورد
كيدهم في نحرهم ، برصاص المدافع السريعة والبنادق
الفضيحة .

وتعالت في الجو تلك الصيحات المقدسة « يحيي الوطن »
و « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » و « لتحي الحرية »
ترددها أصوات الصغار في حماس زائد ، ويحملها الهواء ،
فيصعد بها نحو السماء . .

ولم تكن القوة المرابطة لتعير هذه الهتافات الصيانية
اهتماما ، ولا تقيم لها وزنا ، إذ ما قيمة هؤلاء الصبية الذين
لم يدركوا بعد ما هو الوطن وما هي الحرية ، ولكنها
لو علمت مدى النار التي أشعلتها تلك الكلمات في يومين
أثنين ، لما توانت لحظة واحدة في تفريق المظاهرة الصغيرة
قبل أن تجول في أنحاء القرية من الصباح إلى المساء .

* * *

لقد كان السجن يمتد حذاء شاطئ النيل إلى مسافة
بعيدة ، من شمالى البلدة إلى جنوبها ، وكان بين جدرانها
يومئذ ما يقرب من ثلاثة آلاف مسجون ، غير عدد كبير
من الحراس والموظفين والضباط والمسؤولين والمدير ،

وكان الأخير انجليزى الأرومة ، قاسى القلب ، من يعتقدون أن خير ما يعامل به الشرقى هو الاستعباد والاذلال ، ولذا فان كل من كان فى السجن حينذاك ، كان يهابه ويخشاه ويكنّ له حقداً شديداً وكرهية بالغة ، أما مأمور السجن فكان دصرياً ينتصر فى كثير من الأحيان للمظالم التى يشكوها اليه الموظفون أو المسجونون ، ويبذل جهده فى حدود سلطته ، وما أضيق ما كانت ، لانصافهم وتخفيف ويلاتهم وما يلاقون من قسوة المدير وخشونته .

وسمع المسجونون أن فى البلاد حركة وطنية كبيرة . وأن نيران الحماسة مشتعلة فى كل مكان فكانوا هم الآخرون يجتمعون عصر كل يوم ، بعد عودتهم من قطع الأحجار ، فى دنياهم البائسة ، وسط أفنية « عنابرهم » فيهتفون بأصوات كالزئير . هتافات عالية بحياة الوطن والحرية ، وحياة المأمور . . أما سقوط مدير السجن فكان مستتراً مفهوماً .

وكانت تلك الشرذمة الضئيلة من صبيان المدرسة ، حين يجوبون الطرقات هاتفين صائحين يملأون بجانب جدران السجن وهى تمتد حذاء «العنابر» الأربعة الكبيرة

التي يأوى اليها المسجونون بعد عمل اليوم المضنى ،
فيكثرون ، من خبث زعيمهم الذي يصبح لهم فيرددون ،
من الهتاف : « لتحى الحرية » ، « الحياة هي الحرية » ،
« الحرية أو الموت »

وفعلت تلك الهتافات فعلتها في أفئدة الرجال فردّوها
وهم يزأرون كالأسود من وراء قضبان النوافذ الحديدية ،
وكم كان بودهم أن تنثى هذه القضبان بين أيديهم ، فينطلقون
انطلاق الوحوش في الفلاة ، سواء كان الموت من نصيبهم
أو الحياة ...

وبلغ المدير ما يحدث من هتاف للحرية وللوطن
داخل السجن . فأمر بزيادة ساعات العمل ، وبتأخير
الصعود إلى العنابر . . . وكانت تلك الأوامر بمثابة وقود
ألقى في النار ، فزادها حرارة واشتعالا ، وخاصة عندما
حضر مدير السجون العام ، وهو انجليزى أيضاً ، فأمر
بجلد عام شمل عدداً كبيراً من الهاتفين والمتحمسين .

وعند ذلك بدأت الأمور تدبر في الخفاء ، وساد
الهدوء ، هدوء الاستعداد والتآمر ، وفي تلك الأثناء
وصل إلى مسامع مدير السجن أن أناساً من أهل البلدة

يحوزون الأسلحة وأنهم يدبرون معركة عامة ضد قوة الاحتلال المربطة وسط الطريق بين طرة والمعادي ... ومع تخافة هذا البلاغ ، ومنافاته للمعقول ، إذ أن القوة المحتلة كانت مسلحة بالمدافع السريعة التي تحصد الأرواح حصداً ، فقد صدقه الرجل وأسرع في الاتصال برئيس القوة ، وانتهى الرأي أخيراً إلى إجراء تفتيش عام على كل بيت وكل رجل وامرأة .

وكان منشيء الخبر خبيثاً إلى حد كبير ، فقد أراد إلهاء المدير عما يحدث سرّاً بين جدران السجن ، وتحويل اهتمامه إلى تلك الأمور الشاغلة .

وفي صباح اليوم التالي رصت المدافع حول البلدة من كل صوب ، وكانت تلمع في أشعة الشمس فتبعث الرعب والجزع في النفوس ، وتقدم الجنود شاكبي السلاح الى كل بيت يخرجون أهله الى ميدان كبير ، ولم يبد الناس أى مقاومة خوفاً على أرواحهم وأرواح أهليهم . .

وفي المساء عاد الجنود بخفي حنين ، وفك الحصار عن البلدة ، فقد راح التفتيش هباء ، وكان البلاغ ملفقا من أساسه .

وفي عصر اليوم التالي فوجئت هيئة السجن والقوة المحتلة
بانطلاق القنبلة التي لم يسمع بمثلها في البلاد ، انطلقت
على حين غرة فأحدثت حيرة واضطرابا ، وشرامستطيرا ،

دخل الحارس المنوط به غذاء الظهر ، يتبعه مسجون
يحمل « قزانا » كبيرا قد ملئ بالعدس الساخن ، يتصاعد
بخاره فتنتشر رائحته في المكان ، وتقدم الاثنان الى وسط
الفناء الداخلى للعنبر ليأتى كل مسجون بانائه فيملاؤه ، ثم
يذهب الى موضع الخبز فيتناول رغيفاً ، ويجلس على
الأرض فيلتهم أكلته بنهم وشره ..

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، بل قد أعطيت الإشارة
اللازمة الى حامل العدس ، فأسرع اليه زميل : وعاونته
في رفع « القزان » وإفراغه في لمح البصر على رأس الحارس
المسكين حتى آخر نقطة منه ، وسقط الرجل مغشياً عليه .
ثم حمل الى ركن بعيد ، بعد أن جرد من مفاتيح الأبواب .
وانقضت برهة ردت فيها أبواب العنبر على مصاريعها
وتدفق منها سبعمائة رجل وخمسون ، كل منهم يحمل بين
جنبه عزمة يثنى الحديد ويتحدى القدر ..

ولم يفتن أولو الأمر الى تلك المصيبة الهائلة ، إلا بعد أن كان آخر رجل في طريقه لمغادرة جدران السجن ، وتنسم هواء الحرية الذى يهب فى الخارج .

ومن عجب أن واحداً من الحراس الذين وقفوا على الأسوار لم يلاحظ أحداً من هؤلاء الطارئين وهم يقفزون من جدار الى جدار ثم يطلقون لساقهم الريح ، أو يلقون بأنفسهم فى ماء النيل ، والمعقول فى ذلك أن الطارئين قد اختاروا طرقاً بعيدة عن نقط الحراسة ، قدر الامكان .

وبعد غفلة من الزمن انطلقت أبواق الحراس وصفارة السجن الحادة تنذر بوقوع الطامة الكبرى ، فكان موقفا رهيبا عجيبا ، جاء فيه الحراس من كل صوب وحذب فى لمح البصر يحمل كل منهم سلاحه ورصاصه ، ولا يهمه بعد ذلك فى أى هيئة يبدو . فلقد حكم الظرف على بعضهم بمغادرة الحمام دون ثياب بالمرة محتفظا ببندقيته وكيس الرصاص ، ومنديلا يستربه عورته ، مسرعا يلهث إلى الصف ليتلقى التعليمات ، وجاء البعض الآخر بالجلباب دون الخذاء ، أو حافى القدم وباللباس الرسمى ، وقليل منهم كان كامل الثياب .

وألقيت التعليمات على الجمع الأول من الحراس فانطلقوا نحو الصحراء مسرعين ، وذهب فوج آخر إلى ناحية النيل ، وثالث إلى قلب البلدة ، ورابع إلى أبواب « العنابر » الأخرى ليحول دون هروب الباقين ، وأعطى السجنانون هراوات ضخمة يرهبون بها من يعثرون عليه ويعيدونه إلى السجن مرة أخرى ..

وأخطر مدير السجن بالأمر فجاء من بيته مهرولاً بثياب النوم يركب « البسكليت » ويتقبض على مسدسه ، تكاد الدماء تتفجر من وجهه ورقبته غيظاً وكداً ، وكان أول ما فعل أن طلب نجدة من قوة الاحتلال ، فجاءت على عجل ورابطت أمام السجن احتياطاً للظروف .

أما الهاربون فقد عرف بعضهم كيف يختفي وخرج الآخر دون أن يرتب لنفسه ملجأً أو مهرباً ، قفز بعضهم إلى النيل وظلوا يسبحون حتى إذا بلغوا قارباً صعدوا إليه بملابس السجن فتوسلوا إلى من فيه أن يعطيهم ثياباً أو مخبأفاذا عارض انقضوا عليه واغتصبوا ما يريدون

وانهمر الرصاص كالطر على هؤلاء . سواء منهم السابحين أو المختبئين في القوارب ، فلم يصب منهم من

أحد، إلا قاربين اختل توازنهما ونفذت اليهما المياه . أما
الساجحون فكانوا يغطسون فيتجنبون الإصابة .
ولجأ بعض الهاربين إلى قبور الموتى في شرقى البلدة
فاختفوا فيها ودفن بعضهم بعضا لينفوا معالم الأمر ،
وكن من بقى منهم فى المباني المحيطة بالقبور ، وقد كان
من اليسير العثور على هؤلاء بعد قليل .

وأسرع منهم فوج الى قلب البلدة فهاجموا بيوتها
يبتغون مخبأ ويكتمون صراخ النساء الخائفات بأيديهم ،
مهددين إياهن بالقتل إن أخبرن بوجودهم بغرف البيت ،
أما من كان هناك من رجال فأحسنوا بهم صنعا إذ أعطوهم
ثيابا وساعدوهم فى إتمام كسر الحديد المعلق بأقدامهم ثم
أخرجوهم قبل وصول الحراس .

وهو جمت البيوت وفتشت من جديد ، وعثر على بعض
الهاربين قابعين فى الأركان المظلمة وتحت أكوام الوقود
وفى منحنيات السقوف والجدران .

أما من كان منهم قادراً على العدو السريع فقد انطلقوا
الى التلال والوديان يتعثرون فى الصخور والأحجار حتى
بلغوا محاجر البلدة حيث توجد المغاور الواسعة العميقة ،

يقال إن احدها توصل الى السويس ، فألقوا بأنفسهم في
الظلام يسرون على غير هدى ، ينتخبطون فى الجدران ،
ولقد ظل أسر هؤلاء مجهولا حتى عثر على هيكل عظمى
لأحدهم بعد بضعة سنين عند وقوع حادثة هرب أخرى
اختفى فيها الهاربون فى المحاجر ، وجاء حراس السجن
يفتشون هذه المناور بالمصايح .

وكان المدير يمتطى صهوة جواده كل صباح ومعه كلبه
الذى يتبعهما بعض الحراس على الجياد ، فينطلقون نحو
الصحراء ، وتسير الجياد خيلاً فتضرب الثرى بحوافرها
شديداً ، فاذا انهارت من تحتها الرمال ترجل الحراس فحفروا
فى الأرض لعل هارباً يكون قد دفن نفسه هناك ، وقد
أدت هذه الطريقة الى العثور على ثلاثة من المساكين
وجدوا فى حالة يرثى لها من الاختناق .

ولقد بلغت المعاملة التى كان يلاقها المقبوض عليهم
عند باب السجن مبلغاً كبيراً من القسوة والوحشية ، فان
غيط المدير فاض عليه ، إذ أى حادث أوضح من هذا دليلاً
على سوء الإدارة وفساد النظام ، فكان اذا جاء أحد
الحراس بهارب لا يزال على قيد الحياة ، أشار المدير الى

تفر من السجنانيين قد تحفزوا عند باب السجن ، فيتلقونه
ويشبعونه ضرباً عنيفاً بالهراوات الضخمة ، حتى يسلم
المسكين الروح من شدة الألم ، ثم يأمر المدير بالقائه فوق
زملائه على العربة ، حتى اذا اكتمل عدد الجثث عشرين
أمر بهم أن يحملوا الى أحد الوديان فيلقون في حفرة
تحفر لهذا الغرض ، دفعة واحدة ، ثم يهال عليهم التراب .
ولم يكن أحد هؤلاء السجنانيين يجرؤ على عصيان أوامر
المدير ، فقد كان في هياج عصبي كبير ، مسدسه بيده يطلق
منه الرصاص ، يخترق رؤوس الجثث إمعاناً في الانتقام
من هؤلاء الأموات . . ولقد جرى باثنين من الهاربين لم
يمسهما الضر من الحراس بعد ، فأمرهما أن يدخلوا السجن ،
وكانا يريان جلياً ما ينزل باخوانهم داخل الباب ، فأبيا
الدخول طالبين الموت حيث كانا ، ولما أظهرنا عصياناً
شديداً وأرادا العدو ، لم يجد المدير بداً من إنهاء حياتهما
بطريقة مختصرة ، لم تكن لتشفى غليله ، بأن أطلق على
رأسيهما الرصاص فخرا صريحين الى الأرض . . .

وقد ظلت البلدة أربعة أيام يملأها دخان البنادق
وتدفن في وديانها جثث القتلى ، ويحاصر أهلها ويوتهم

من كل ناحية بواسطة جنود السلطة العسكرية، حتى هدأت العاصفة تماماً بعد أسبوع ، وأمكن الناس أن يتجولوا في الطرقات بلا خوف ولا غناء .

ولم تقتصر وسائل البحث على ذلك فحسب، بل تناولت نواحي القطر المصري كله فيما بعد ، وخصوصاً تلك البلاد التي كان يستوطنها الهاربون قبل دخولهم السجن ، وقد ضبط منهم العدد الكثير بهذه الطريقة يختفون بين أهليهم ، أو في بلاد غير بلادهم .

والحق يقال إن الهارب من وجه القانون والعدالة لا ملجأ له مطلقاً يجد فيه اطمئنان النفس أو يتذوق به لذة الحرية ، مادام القانون يطارده حتى يقبض عليه، ولو فرغ، أنه وفق إلى مخبأ حصين ، أو ملجأ أمين ، فإنه سيظل طوال يومه وليله يترقب ويحترس ، إن أغمضت عين له ظلت الأخرى يقظة وجلة ، حتى تمسكه يد العدالة ، ويساق إلى السجن مرة أخرى ليدوق عذاباً مضاعفاً ..

ولقد كان هذا الحادث الجلل ، باعثاً على التفكير من جديد في قوانين السجون وأنظمتها ، وطرق معاملة المسجونين ، حتى أتى الوقت الذي فيه غادر العنصر

الانجليزى مصلحة السجون فأتيحت الفرصة للتوسع فى
الاصلاح ، وشموله دقائق الأمور ، فعمّ النظام وشمل
الهدوء ، واطمأن السجنان والمسيجون ، وانعدمت حوادث
الطرب ، فلم نعد نسمع بمحادثة واحدة من زمان بعيد ،
وواضح أن الفضل فى كل هذا راجع الى السقل المصرى
وحكمته ، وأنه وحده هو الذى يمكنه تفهم نفسية المجرم
المصرى ، وتبين وسائل ترويضها وتهذيبها .

الإليس ، والشيخ سيف

لا تحسب أنها الظالم أن
القدر في غفلة عنك

لست أدري كيف كان الشيخ سيف الأعمى يؤدي
تلك المهمة الشاقة الغريبة ، في الهزيع الأخير من كل ليل ،
فلا يدع شارعاً أو حارة أو ممراً في البلدة ، إلا دب فيه ،
قبل الفجر بساعة أو يزيد ، يصيح بملء صوته في نغمة
حلوة محبوبة مردداً عبارات التذكير ، والحض على
التقوى والصلاح .

ويظهر أن الأمر كان يستوى عند هذا الشيخ ،
فالنور عنده كالظلام ، والقيظ كالزمهرير ، وعصاه تقوده
خلال القرية ، حتى إذا عسعس الفجر ، وتنفس الصبح ،
لم ير له في الخارج أثر ، وهو طول النهار في عقر
داره قعيد .

وكم كانت صيحات هذا الرجل وتراثيله تقض مضاجع
الناس ، وتجلب لهم الفكر الحزين ، والهم الدفين ، في ذلك

الوقت الذى يحلو فيه النوم، وتنجلي فيه الأحلام .. ولولا
ما كانت تنطوى عليه عباراته من تذكير بأمر الدين ،
والتقوى والصالح ، لكان نصيبه منهم السخط والايذاء.

* *

... فى الساعة التى تسبق الفجر يتقلب النائم على
جنبه قلقاً فيسمع صوتاً نائياً يدنو بطيئاً حتى يملأ الآذان،
فيبدد السبات من الأجفان ، ويعيد إلى العقل إدراك
اليقظة ، ثم يملأ الفؤاد حسرة وعبرة ...

« .. أيها المؤمنون .. الايام تفوت ، والناس تموت ،
ولا يبقى غير وجه ذى العزة والجبروت ... »

« ... أيها المسلمون .. من عمل صالحاً فلنفسه . ومن
أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون ... »

« ... الدنيا ساعة ، تمضى فتأى الساعة ، ولا مجال
يومئذ للتقوى ولا للطاعة ... »

« ... الدنيا مر ، والآخرة مقر ، فأطيعوا الله ما أمر
وانتهوا عما نهى وزجر ... »

« ... أيها المسافرين .. تزودوا فالرحلة تهون ،
والأجل يخون ... »

« ... أيها المؤمنون .. الصلاة خير من النوم ... »
الصلاة خير من النوم ... وما أدراكم أن لكم في الحياة
غير اليوم ... »

* * *

.....

أعوذ بالله من ذلك الشعور الذي كان يستولى على
الإنسان حين يسمع هذه الألفاظ تسبح في ظلام الليل ،
وتتردد في سكونه .

إنه كان شعور الجزع والتشاؤم ودنو الأجل ، واحتقار
الدنيا وأمورها .. ومع ذلك فقد كان هذا التحذير المؤثر
يذكر المرء بحقيقة الحياة ، ويرهف حواسه ، ويحثه على
التقوى وفعل الخير ، وخدمة الإنسانية ، وأداء ما أوجبه الله
ولكن عبارات الشيخ سيف وتراتيله لم تصبح غريبة
على الأسماع بعد بضعة أسابيع ، إذ حفظها الناس صغيرهم
وكبيرهم ، ورددها الأولاد مقلدين ، وضؤل اهتمام
النائمين بها .

أما الشيخ الكفيف فكان يعود بعد صلاة الفجر
بالمسجد إلى حجراته ، التي تقوم منفردة بجانب أحد البيوت .

فَيَقْضِي سَجَابَةَ النَّهَارِ هُنَاكَ ، لَا يَتَنَاوَلُ مِنْ الطَّعَامِ غَيْرَ
مَا يَجُودُ بِهِ عَلَيْهِ الْجَارُ ، مِنْ بَقِيَّةِ قَوَاتِ الْيَوْمِ السَّابِقِ ، وَلَا يَقُومُ
بِعَمَلٍ غَيْرِ الصَّلَاةِ وَالْجُلُوسِ فِي الشَّمْسِ ، حَتَّى إِذَا جَاءَ
الْلَّيْلُ أَخَذَتْهُ سَنَةٌ مِنَ النَّوْمِ حَتَّى السَّحَرِ . ثُمَّ يَتَنَاوَلُ عَصَاهُ
وَيُخْرِجُ لَأْدَاءَ مَهْمَتِهِ الْمُقَدَّسَةِ .

وَمَنْ حَلَّ الْمَسْكِينَ بِالْبَلَدَةِ ، وَأَهْلَهَا عَنْهُ لَاهُونَ ،
لَا يَفْكُرُ أَحَدُهُمْ فِي الْإِحْسَانِ عَلَيْهِ بِلَقْمَةٍ أَوْ قُرْشٍ وَتَدِيرُ جَمْعَ
ذَلِكَ إِلَى جَهْلِهِمْ بِحَالِهِ ، وَعَدَمِ رُؤْيَيْهِمْ لَهُ ، وَكُلِّ مَا يَعْرِفُونَ
عَنْهُ هُوَ اسْمُهُ وَصَوْتُهُ وَعِبَارَاتُهُ .

رَخَلَتْ الْبَلَدَةُ تَسْمَعُ صَوْتَ الشَّيْخِ قَبْلَ الْفَجْرِ كُلِّ لَيْلٍ ،
حَتَّى انْقِطَعَ بِنَجَاةٍ عَنْ عَادَتِهِ ، وَلَمْ يَحْدِ يَسْمَعُ لَهُ نَدَاءٌ ،
وَبَدَلُ أَنْ يَهْدَأَ النَّاسُ لِتِلْكَ الظَّاهِرَةِ ، أَوْ يَسْتَرِيحُوا لِزَوَالِ
بَاعِثِ هَامٍ مِنْ بَوَاعِثِ قَلْقَمِهِمْ ، بَدَأُوا يَتَسَاءَلُونَ عَنْ دَاعِيِ
اخْتِفَائِهِ ، وَأَدْرَكَهُمْ فِي ذَلِكَ شَكٌّ وَحَيْرَةٌ ، وَلَكِنْ الْعِيدُ
كَانَ عَلَى الْأَبْوَابِ ، فَلَمَّا جَاءَ كَانَ شَاغِلًا لَهُمْ عَنْ أَمْرِهِ .

وَعِنْدَ انْقِضَائِهِ بَدَأَ الْكُلُّ يَتَسَاءَلُ عَمَّا وَقَعَ بِالشَّيْخِ ، وَمَا هِيَ
إِلَّا عَشِيَّةٌ أَوْ ضُحَاهَا حَتَّى عَرَفَ كُلُّ بَيْتٍ وَكُلُّ فَرْدٍ ، أَنَّ الْوَاعِظَ
الصَّالِحَ نَزَلَ الْقَسَمِ ، وَقَدْ حُكِمَ عَلَيْهِ بِالسَّجْنِ أَسْبُوعَيْنِ . !

لم يكن جسد الشيخ قويا مثل نفسه فيقدر على احتمال
الجوع والبرد دون أن يعثر به الضعف والهزال ، ولم يكن
ما يتناوله طول اليوم من بضعة لفات كافيا لبعث الحرارة
في أنحاء جسده ، ودفع الدم في عروقه .

فما كادت معدته تشكو من الجوع حتى تمخا ذلت ساقاه وعجز
عن اتمام رسالته التي يقوم بها في كل ليلة ، وأقعده الضعف
في حجرته ، فريسة للحرمان من القوت ، جهلا من الناس .
وانقضى يومان ومعدة الشيخ تكاد تصرخ في جوفه
من فرط الجوع ، واللقمة التي يتناولها من الجار لا تطفىء
الجدوة بل تزيدها اشتعالا .

وجاء عيد الأضحى . وشاء القدر أن يتهم من الشيخ
فأوصل الى مسامحه وأنفه أصوات الناس يتحدثون عن
الكباش المذبوحة ، ورائحة الشواء والقلاء ، ولو ان عينييه
سليمتان لذرفتا سخين الدمع حسرة على حاله ، ولطفة
على الطعام .

وإلى هذه الدرجة أيضا لم تزل نفسه تأبى عليه التصريح
بحاله إلى جاره . الذي كان متنعما بالنسبة له . فقيرا بين
سائر الناس .

ولم تكن عند جاره ذبيحة فيحسن عليه بشيء منها .
بل إن الجار غادر بيته ورحل إلى بلد مجاورة ليزور أهله
وعشيرته . زيادة في سوء حظ الشيخ العاشر .

وإذن فلم يبق أمامه غير أمرين ، إما الموت جوعاً ،
أو أن يجر نفسه جراً إلى الخارج فيخبر الناس بأمره
فيجود عليه المحسنون بما يملأ معدته ، وينقذه من مخالب
الجوع والهزال

ولكن . . أيفعل ذلك وهو الواعظ الذي ينصح
الناس بالزهد في الدنيا ومظاهرها ، ويحضهم على طاعة الله
وتقواه ، وبذلك يؤدي رساله شريفة مقدسة ؟ . أيقول
للناس أنه جائع وأنه يريد طعاماً لياً كاه ؟ . كلا ! هذا
لن يكون . . أفضل له أن يموت جوعاً من أن يحط من
قدر نفسه ورسالته التي يؤديها بتلك الفعلة الشنعاء !

وهكذا جلس الشيخ يقلب أمره حائراً ، حتى تاه بعد
قليل في سبل التأمل والتفكير فمجب كيف تتركه الأقدار
وحيدا بلا قوت ، وهو الرجل الذي يسعى منذ سنين في
فعل الخير ونصره ، سعياً يلاقى فيه من العناء ما قد لا يماثله
عناء ، إذ من الناس يفعل فعلته فيخرج في ظلمات

الليل يشققها بعصاه ، ويواجهه هواء السححر الرطب بصدرة ،
ويصيح في النائمين مرتلا عظاته ونصائحه ، فيترك في
نفوسهم أبلغ الأثر .

ولكن .. مهلا ! .. كيف يجرؤ على لوم القدر فيما
أنزله به ، وكيف يعجب من انكار الدهر له وهو الذي
يستحق كل ذلك وأشد منه ؟ ! .. فهل نسي يوم أساء
الى عرض أخيه وذكراه ، فبغى على زوجته الأرملة ،
وآذى أولاده في أموالهم ومصالحهم ، فأذاقه الله شر
العذاب ، فأفقده ما غنم من مال ومتاع وأنزل على بصره
غشاوة ، فعدم النعيمين ، نعيم الجسد ، ونعيم النظر ! ..
ولكنه تاب عن اذتراف الاثم وفعل السوء ، واستغفر
الله كثيراً ، وكفر عما أتى تكفيراً عظيماً ، وطالب الصفح
من المرأة التي ظلمها والأيتام الذين آذاهم ، فصفحوا عنه
جميعاً وسامحوه ، واستغفروا الله له .. ومنذ سنتين وهو
مكرس نفسه لأداء تلك الرسالة الشاقة ، لا يني ولا يهن
عزمه ، ولا يطمع من الدنيا في شيء غير لقمة تقوي بها
ساقاه على السير ، وفراش يريح عليه جسده قسطه
من الليل

أما تلك اللقمة فقد غابت عنه طويلاً وأمعنت في الغياب ، وهاشم الناس غارقون في لحوم الضأن وأطباق الفطير ، بينما هو في لفة على كسرة من خبز والذنب في ذلك كله ذنبه وحده ، فالناس لم يجرموه لحمًا أو فطيرًا أو خبزًا ، ولكن شعور الآباء والكرامة هو الذي يملأ فؤاده فيحول بينه وبين الاستجداء .

.. وكان ابليس مارا بتلك الجهة ، تخطر له أن يرى هذا الواعظ العجيب ، لعله واجد فيه هدفًا لسهم من سهامه ودخل زعيم الشياطين في هدوء ، فوقف بجانب الجدار يستعرض مخيلة الشيخ وأفكاره ، ثم انطلق بعيد برهة دون أن يفعل شيئًا .



وإذ بلغ القنوط من الرجل الجائع الضعيف مبلغه . وأيقن أن كل من حوله من الناس في شغل بالعيد وشئونهم وأنه لا مناص له من الهلاك بعد عذاب أليم ، عول على الصبر والتحمل الى النهاية ، ومقاومة كل ما تشكوبه معدته وأعضاؤه من آلام .

وفجأة خيل إليه أنه ليس بوحيد في حجرته ، وأن

وكاد الرجل يعود الى رشده ويدرك أن ما يملأ رأسه
من الوسوس وما تحدثه نفسه الأماراة إنما هو من فعل
الشيطان ، ولا يتفق مع الخير في شيء .

وبينما هو يمعن في التأمل والتبصر إذ انتفض مضطرباً
حين سمع اسمه ينادى من داخل الحجرة - وكان ذلك
ابليس - واقفاً عن كذب ، ينصب الشباك !

— يا شيخ سيف !

— من هذا ؟

— أنا صديقك يا شيخ ، وإني أرى على وجهك
دلائل التعب الناشئ عن الجوع الشديد ، ولقد جئتك
بهذا الجدى السمين لتأكل من لحمه الشهى اللذيذ ، فيعود
إليك نشاطك ويذهب عنك الألم والضعف .

وحار الشيخ في أمر محدثه ، ومعنى قوله ، ولكنه
أدرك بعد برهة من التفكير ، الى أن مخاطبه لا بد وأن
يكون من المحسنين الفضلاء ، فخاطبه بقوله :

— هذا كثير منك أيها السيد الكريم ، ولست أنا في
حاجة الى هذا كله ، ويكفيني من اللحم قطعة ، ومن الخبز
كسرة ، لأشبع معدتي ، وأشد أعصابي ، ثم إني كما تراني

غير بصير ، فكيف لي السبيل الى ذبح هذا الجدى وساخه
وشيته أو سلقه ؟ . . .

وشعر ابليس بالخيبة تنسرب الى حيلته ، فقال في
حنان متصنع :

— ما أقنعك يا شيخ سيف ! وما أشدك عناداً
للشهوات ! إن لحم الجدى الصغير الذى تأبى قبوله لن
يكفيك أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة ، سيعاودك بعدها
الجوع ، وما أعجب إلا لرفضك رزقاً كهذا ، أما إنك غير
بصير ، فليس أيسر من أن أقوم أنا بمهمة تحضير الجدى
وإعداده لك ، ولن يستغرق ذلك منى وقتاً طويلاً !
وعند ذلك انطلق الشيخ داعياً له بقوله :

— جزاك الله خيراً أيها المحسن الكريم ، فأنت رجل
فاضل رحيم بالضعفاء ، بارك الله فيك وعليك !

ولم يجب ابليس بشئ بل ابتسم ابتسامة الظفر
قائلاً فى نفسه « أنت أول رجل يدعو لى هكذا ! »

وذبح الجدى وسلخ ، ثم قطع لحمه قطعاً صغيرة
ألقيت فى إناء الشيخ الفخارى ، ثم أوقدت فى أحد
الأركان نار قوية وضع فوقها الاناء .

وبعد ساعتين كان الشيخ سيف يجلس وحيدا وهو
أسعد مخلوق على وجه الأرض إذ ان كل ما يتمناه كان
بين يديه ، وبين أسنانه .



ولكن هذه اللذة ، شأن كل اللذات التي يأتي بها
الشيطان كانت بنت لحظتها ، واعتقبتها الخسرة والنسبم
والعذاب ، فلقد طرق أذن الشيخ وهو يمضغ في قطعة
من اللحم الشهى ، صوت امرأة تنادى قائلة :
— يا أولاد الحلال ! . جدى صغير ضايع من الصباح
وحلاوته أحسن منه !! .

.....

... آه .. ! لقد ارتجف الشيخ لهذا الخبر الأسود
... جدى صغير . ضايع .. ! من الصباح !! .
وقفت أسنانه عن المضى في المضغ ، وعادت يده
فارغة بعد أن ردت قطعة اللحم إلى الأناء .. ها هو
يأكل لحم جدى صغير مثل الذى تنادى عليه المرأة ،
وقد جاءه الجدى منذ الصباح فهل يمكن أن يكون هو
الجدى المفقود . ؟ !

آه ياربى ! . ولكن كيف يكون ذلك . ؟ لقد جاء
رجل محسن كريم فوهبه الجدى ، وذبحه له وسأله وسأله
لحمه ثم جاءه به فى إناء ليأكله !
فهل كان هذا الرجل محسناً حقاً ، أم انه كان يحفر له
هوة ليقع فيها ! ؟

اللهم إن كانت الأخرى ، فلقد وقع فى الهوة ، وثبتت
عليه السرقة ، وكان من المجرمين ! وماذا هو فاعل الآن
والجدى مذبح فى حجرته ، والمرأة التى تنادى على
جديها المفقود هى جارتة الرابعة ، ولا بد إذن من
اكتشاف أمره !

يجب أن يفعل شيئاً ! يجب أن يزيل معالم الأمر ،
فيخفى الدماء التى سالت على أرض الحجرة ، ويخفى اللحم
فى مخبأ خفى ، وينظف مسكنه من كل دليل أو اثبات !
وقام المسكين ، ولما يفارقه الضعف والهزال فجمع
كل ما كان بالحجرة إلى ركن من أركانها ، حصيره وغطاءه
وصندوقه وإناءه ، وأخذ يحفر فى أرض الغرفة كأنه
يحرثها ، فيقلب عاليها سافلها ، ليخفى كل ما على سطحها
من سائل يحسبه دماً ، حتى كلت سواعده ، بعد أن بدل

للحجارة أرضاً غير أرضها الأولى ، ولم ينس أن ينحى
اللحم في انائه في حفرة ردمها بالتراب ، ثم أعاد كل
قطعة إلى مستقرها ، وجلس على حصيره ينتظر ما سيأتى
به القضاء . !

وجاء الليل ثم ولى ، والشيخ لا يكاد النوم يستولى
عليه حتى يهب مذعوراً بعد أن يرى وجه زوجته أخيه
وأولادها يكون حسرة على حالهم .
ولما حل الصبح أيقن أنه فى هذا اليوم لابد مسوق
بتهمة السرقة إلى مخالف القضاء ، وأدرك أن القدر لا يزال
وراءه بعضا الانتقام . !

... وكان ما تكهن به عند حلول الضحى . فقد طرق
الباب طارق ، فلم يحب بكلمة وجلا وجزعا ، ولكن الطارق
صاح ينادى الشيخ ، ويهدد بكسر الباب إن هو لم يفتحه
وتبين من صوته نبرات الوعيد والتهديد .
ولم يسمع الشيخ أخيراً إلا أن يحجب :
— من الباب ؟ !

فعاد الصوت منذراً من جديد :

— افتح ياسارق الجدى !!

وهكذا وقع ما توقعه ، وأشد منه وأنكى أن كان
بالباب غير المنادى صبية يتهايمسون ، وامرأة تسب
وتتوعدا. وإذن فقد تطور الموقف إلى فضيحة كبرى ،
تساوى كل ملاقاه من عذاب حتى الآن .

ولم يقو المسكين من فرط تأثره واضطرابه على
الوقوف فسكت ، وأنصت في استسلام الى صوت
الضربات تتوالى على الباب الخشبي الذي ارتد على مصراعيه
بعد لحظة .

ودهش القوم حين لم يروا بالغرفة دليلا على الجريمة
ولكن جلد الحيوان الذي وجدوه ملقى خارج الباب ، لم
يدع في نفوسهم من ريب في أن المجرم هو الشيخ ، وليس
من أحد غيره .

وتقدم الشرطى الذى استنجدت به المرأة إلى الشيخ
فنهزه قائلا :

— ماذا تقول في هذه التهمة أمها الشيخ ؟
ولم يجب المتهم بكلمة بل ظل صامتا وكأن على رأسه الطير
ولكن المرأة صاحبة الجدى المفقود لم تصطبر لحظة
بل انطلقت فى حرقرة الغيظ تصيح :

— هذا الكاهن اللئيم ! يضحك على ذقون الناس
بالوعظ والارشاد . ثم يسرق جدي وينجحه ، ويلقى
بجلده إلى الشارع . إنه يستحق الشنق ! يستحق الجلد .
إبحث ياسيدى الجاويش فى هذا الصندوق أو فى تراب
ذلك الموقد ، أودعنى أنا أبحث أمامك !.. ألا ترى كيف
أن الأرض منبوشة فى كل ناحية ؟ والتراب مقلوب فى
كل بقعة ؟ ، والدماء .. هاهى الدماء يا جاويش مختلطة
بالتراب ! . دماء جدي العزيز .. !

... جدي الذى كنت أريه ، وأصرف عاياه دم قلبي ،
وأشترى له كل يوم بقرش برسيم ، والذى نذرتة ذبيحة
فى مولد السيد البدوى !.. إلهى وأنت جاهى ، بحق السيد
البدوى ، وكل الأولياء الصالحين ، أن تشوى هذا اللص
فى نار جهنم ، كما كان يشوى لحم جدي ، وتسليخ جلده
مثلاً سلبخ جلده ...

.. و .. آه !.. ها هو الجدي يا سيدى الجاويش ،
ها هو لحم جدي العزيز ، يخفيه المجرم فى بطن الأرض !
تحت التراب ! فى كل كل يوم قطعة - بالسم - ثم يخبئه
لليوم التالى ، حتى ينتهى . ولكنه ان يهنأ به أبداً . أبداً !..

بل سيهنأ بأسفلات السجن وعذابه . . هذا الشيخ العاهر !
وكان الجاويش وبضعة من الصبية يحيطون بالمرأة
وهي تستنزل اللعنات على رأس الشيخ ، وكانوا جسد
مأخوذين بما تقوله وما تفعله من تنقيب في أنحاء الحجرة
ونبش في الأرض ، حتى اذا عثرت على الاناء الذى يحتوى
بداخله لحم الجدى المسلوق ، بلغ بهم العجب منتهاه ، ولم
يسع أحد الأولاد إلا أن يصيح في حماس وذهول :
— يا حرامى الجدى !!!

وعادت المرأة تندب حالها وتقول :

— قولوا لى يا ناس ! ما الذى سأناله أنا ثمناً لهذا
الجدى وتعويضاً عنه ؟ وكل ما عندهذا المجرم لا يساوى
ثلاثة ملايين بما فى ذلك ذقنه ! ! من يعوضنى ثمن هذا
الجدى الذى عرض علىّ فيه جنيته كامل فلم أقبل بيعه إلا
بمائة وعشرين ، آه يامصيبتي ، آه يا خرابى . . يا دهوتى !!
ولم يجد الشرطى بداً من ايقاف المرأة عند حدها
فصاح فى الشيخ :

— قم معى الى القسم . . .

وكان الشيخ طول الوقت يضع أصابعه فى أذنيه ليتقى

تلك الألفاظ التي تقع في فؤاده موقع الطعنات ، فلما ناداه الشرطي لم يسمع جيداً ما قيل ، فلم يتحرك من مكانه ، ولكنه شعر بعد هنيهة بيد قوية تجذبه الى الوقوف فوق مرتجفاً ، والاضطراب آخذ منه كل مأخذ ، وأعاد عليه الشرطي القول :

— الى القسم يا مجرم !!!

وهكذا زف الشيخ سيف في شوارع البلدة ووراء الصبية يتجمعون ويتكاثرون في كل خطوة ، وهم يصيحون ويهللون :

— يا حرامى الجدى !... يا حرامى الجدى !...

* *

وقف الشيخ المسكين هادئاً غير مرتجف ولا مرتعد ينتظر التحقيق معه في جريمة هو منها براء . . . ولقد ازداد به اليأس والوجل في بادىء الامر حتى انقلب الى عكسه فعاودته شجاعته النفسية ، واستسلم للقدر وما يأتي به بقلب من حديد ، ولكنه ما كاد الضابط المحقق يتخذ مجلسه ، حتى اعتراه شعور الجزع بعد ما تليت عليه ظروف الحادث ودلائل ثبوته عليه . . .

وحين سأله الضابط في سياق التحقيق :

— وكيف تكون واعظاً أيها الشيخ ثم تفكر في سرقة جدى ؟ !

أجابه الشيخ في صوت متهدج يفيض بالأسى والحسرة — وهل تصدق يا حضرة الضابط أنى أفعل ذلك ؟ إنه حكم القدر أن أعذب ! ، وإلا فكيف يتيسر لى ، وأنا مريض قعيد على حصيرى فى حجرى المغلقة ، أن أسرق جدياً ، ثم أذبحه ، وأسلخه ، وأوقد الموقد وأسلق لحمه ، ولست ذا بصر ، ولا عيون ؟

وعند ذلك بدت دلائل الحيرة على وجه الضابط المحقق ولاح له شئ من الحقيقة فى قول الرجل ، ولكنه شأن المحقق الحاذق راح يقول :

— اسمع يا شيخ ! سأحكى أنا لك كل ما حدث ، وبعد ذلك يمكنك أن تبرهن على براءتك ! أنت حقاً كنت مريضاً وقعيداً فى حجرتك ، ولكن زائراً زارك فى العيد ، وكان من اللصوص ، فاتفقتما على سرقة الجدى والاشتراك فى لحمه ، على أن يخبأ عندك فىكون بعيداً عن الأعين ، ولكن فاتكما أن تخفيا معالم الجريمة جيداً فتركتما جلد الجدى بجانب الباب ! فما قولك فى ذلك يا شيخ !

وكان المتهم يزاد ذهوله شيئاً فشيئاً كلما ذكر الضابط
جانباً من جوانب الواقعة ، حتى اذا سأله رأيه لم يسعه إلا
أن يقول :

— إن ما تقوله ياسيدى قول شاهد عيان ، فقد زارنى
حقاً رجل ، ولسكنه ليس بلص ولا مجرم ، وأخبرنى أنه
علم ما بى من جوع وضعف فجاءنى بجدى له ليهبه لى ، ولم
يسعنى بعد إلحاحه إلا القبول ، وقد قام هذا الرجل بذبحه
وسلخه وتجهيزه ، ثم تركه لى وذهب ، ثم كان من أمر
ضبطه عندى ، ولم أكن أدري مطلقاً أن الجدى لأحد
من أهل البلدة غير الذى وهبه لى ، ولم يخطر ببالى أنه يريد
الايقاع بى ، فافعلوا بى ما أتم فاعلون ، والأمر لله ربى ،
هو أعلم بما كان وبما يكون !

*

وبعد أن قضى الشيخ ^{**} المسكين فى السجن سبعة أيام
عاد الى حجرته يجر ساقيه ، فبقى هنالك حتى الظلام ، ليتقى
سخرية الناس ، ثم حمل حوائجه فى كيس فوق ظهره ،
وخرج يضرب عصا الترحال الى بلد بعيد . . .

شُرود العاطفة

عشق المرأة للمرأة عشق
أبتر ، مصيره إلى الفشل

يرى النازل في إحدى ضواحي القاهرة ، سورا
طويلا يضم بين جوانبه مساحة واسعة قد أحاطت بها
أشجار الكافور الشاخنة ، وقام في وسطها بناء كبير . حوله
حديقة منسقة مزدهرة ، والبقعة هادئة بعيدة عن ضوضاء
المدينة ، ولا غرو فهي معهد علمي داخلي للبنات .

اصطففت الفتيات في ساحة المدرسة ينشدن نشيد
الصباح ، في صوت واحد جميل يستقبلن به الأسبوع
الدراسي ، بعد أن عدن من عند ذويهن ، حيث قضين عطلة
الخميس والجمعة ، وقد بدت نضرة الشباب على وجوههن
المشربة بالحمرة ، وشابهن أسراب الحمام الأبيض في ثيابهن
الناصعة الموحدة اللون والهيئة ، عندما أخذن يخطرن نحو
حجر الدراسة في صفوف متفرعة بشكل هندسي جميل .
وكانت تسير في إحدى الصفوف الداخلة الى الجناح

الأيمن من البناء . فتاة لم تتعد بعد السبعة عشر ربيعاً ، ذات جمال وبهاء ، وقوام فاتن متناسق . قد تهطل شعرها الأسود على كتفها في ضفائر متعددة متجاورة كأعمدة من الأبنوس اللامع ، وتوردت وجنتاها من فرط ما بها من الصحة والهناء ، وفاح من حولها عبير الياسمين والبنفسج . من باقة صغيرة قد اطلت من صدرها .

التفتت ناهد إلى جارتها في الصف قائلة في لهفة :
— متعرفيش ياسوسن أبلة فتحية جت ولا لا ؟
ولكن صديقتها غمرتها بنظرة ملؤها اللوم والعتاب .
ثم قالت :

— إحم ياست ناهد !. أبلة فتحية مش جايه النهارده .
الظابطة كانت بتقول إن عندها أجازة لغاية يوم الاثنين .
إيه رأيك بقي ؟ ..

ولكن ناهد لم تجب بل امتقع وجهها قليلاً — وتنهدت .
ثم واصلت السير في سكون ..

... واتخذت الفتاتان مقعديهما في حجرة السنة الرابعة
بالقسم الأدبي ، وكان القلق يبدو على وجه ناهد بأجلى
معانيه ، ولكن سوسن التي تعرف سر هذا الاضطراب

ضحكت ضحكة قصيرة ، وربت يديها على كتف ناهد .
قائلة :

— إخص عليك يانونا — دانت يظهر دايبة خالص .
بقي غياب أبله فتحية يخليك حزينه ، وبوزك يصبح
أمريكاني كده ؟! دنت نونا صحيح ! . أبلتك فتحية أهى
جت أهيه . اعدلى بوزك بأه !

دخلت الأنسة فتحية وصفى مدرسة التاريخ . فحيت
الطالبات فى صوت أجش . يميل إلى الاسترجال منه إلى صوت
النساء ، ولم تزد تحيتها على كلمتين :

— صباح الخير !
وانطلقت الأصوات الناعمة تجيب فى نغمة واحدة :
— صباح النور يا أبله !

وفى الواقع كانت الأنسة فتحية حائزة على الاحترام
التام من طالبات المدرسة جميعا ، ومع أنها كانت تعاملهن
بكل لطف وحنان ، وبغير كلفة ما ، إلا أن الجد
كان يسود أعمالها ، فكن يقدرنها كثيراً ، ويحسبن لها
حساباً .

بدأت تلقى درسا فى التاريخ عن الحملة الفرنسية على مصر .

ثم خطر لها أن تلقى بضعة أسئلة على الطالبات قبيل انتهاء الوقت فقالت :

— دلوقت ، مين تقدر تقول لى باختصار ماهى الدواعى التى دفعت نابليون إلى غزو مصر ؟
وعند ذلك ارتفعت الأصابع الرقيقة فى منافسة ظاهرة للإجابة على السؤال ، ولم تكذب عينا ناهد تتقابل بنظر المدرسة حتى انتصبت واقفة دون أن تدعوها للإجابة !

ولم تجد المدرسة بدا من معالجة الموقف فقالت :
— اشمعنى يانا ناهد انتى دايمًا مذا كره التاريخ كويس وتحيى تجاوزى كل سؤال ؟
— أصل يا أبله .. أصل انا يا أبله ..

وهنا فاضت عينا الفتاة بلمهة الحب والشوق وهى ترنو بعينيهما نحو مدرستها . ثم استدركت حيرتها فواصلت قائلة :
— يمكن تلخيص الدواعى التى دفعت نابليون إلى غزو مصر فيما يأتى :

أولاً : تكوين مستعمرة فرنسية تعوض على فرنسا عما فقدته من أملاكها .

ثانيا : سد الطريق على انجلترا في الشرق بينها وبين
مستعمراتهم .

ثالثا : فتح أسواق جديدة للتجارة مع فرنسا .

رابعا : اكتشاف مصر من الوجهة العلمية ودراسة آثارها
— جيد جداً ياناها ! متشكرة .

ولم يكن من الميسور مواصلة الأسئلة إذ دق الناقوس
مؤذنا بانتهاء الدرس الأول وخروج المدرسة من الغرفة
ولكن ناهد لم تدع الفرصة تفلت من بين يديها . بل
تظاهرت بمخادرة الفصل لشأن خاص ، فتعقبت المدرسة
في الممر الطويل المؤدى الى الدَّرَج . حتى إذا بلغتها
كانت الدماء تكاد تنبثق من خدودها . ثم استخرجت
من صدرها وردة حمراء اللون ، بديعة الهيئة ، ومدت بها
يدها المرتجفة قائمة وهي تلهث :

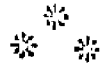
— تسمحي يا أبله !

وتناولت الأنسة فتحة الورد من ناهد ، فأدتها من
أنفها ثم قالت :

— متشكرة جدا ياناها !. لكن ليه تاغبه نفسك

كده يا حبيبتي ؟

وكان وقع الكلمة الأخيرة على ناهد عظيماً ، وودت
لو سمعتها مرة أخرى فهمست مكررة في ذهول « يا حبيبتى ! »
ولكن مدرستها لم تسمعها إذ كانت قد بلغت منتصف
الطريق إلى حجرة المدرسات .



تقع حجرة المذاكرة بالدور الأرضي من المدرسة
وهي أشبه بمكتبة واسعة ، امتدت في وسطها منضدة طويلة
رصت بجانبها المقاعد من الجانبين ، وتدلّت فوقها
المصابيح الكهربائية على أبعاد قصيرة . ولم تكن الحجرة
يومئذ مليئة بالمجتهديات النشيطات . فما زال الوقت بعد
مبكراً ، ولما يمضى من السنة الدراسية غير أربعة شهور .
وكان النظام يقضى أن لا تذاكر الفتيات في غرف
نومهن مطلقاً ، والويل ، وخصم نمر الأخلاق ، لمن كانت
تضبط متلبسة بهذه الجريمة !

دخلت ناهد متأبطة كتاب التاريخ وبضع كراسات
تتبعها سوسن وقد التف ذراعها حول خصر زميلتها
تهانئ ، وفي نهاية المنضدة جلس الثلاثة يلقين نظرة فاحصة
على دروس اليوم ، ويستعدنها لتثبت في ذهنهن ، وذلك

سيراً على الطريقة المثلى التى نصحبهم بها أستاذ اللغة العربية .
ولم يمض على جلوسهن بضع دقائق حتى انطلق صوت
سوسن فجأة :

— إف من المذاكرة يا خواتى ، دى حاجة تفلق ،
مذاكرة مذاكرة مذاكرة !! متجوش نقفل الكتب وتتكلم
شوية قبل ما يضرب جرس النوم ؟ !

ولكن ناهد لم يعجبها هذا الاقتراح فاعتضت قائلة
— لا يا سوسو — أنا لازم أعيد على درس التاريخ
اللى أخذناه النهارده عشان ما انساهشى

وانتهزت تهانى هذه الفرصة فانبرت فى حدة « لتفش
غلها » فى ناهد ، فقد كانت تذكره مدرسة التاريخ منذ
السنة الماضية ، بعد أن رسبت فى ذلك العلم وقضت طول
مساحة الصيف من مذاكرته ، ولم تتذوق لمساء البحر ولا
لهواء الاسكندرية طعماً ..

— يا ختى اتى جايه المدرسة تتخصصى فى التاريخ ولا
ليه ؟ ، دانت حقتك السنة الجاية تعملى لك رسالة فى التاريخ
وتقدمى فى الدكتوراه ! ..
فعاجلتها سوسن بقولها :

— اشمعنى يا ست تهنى انت كان ما بتذا كرىش
حاجة غير الفرنساوى ؟

— طب وماله يا ست سوسن !! أظن حتقولى لى إنى
بحب مدموازىل سوزان كان ؟

وهنا ظهر الغضب على وجه ناهد بأجلى معانيه ،
وفهمت «الفولة» التى تقصدها تهنى ، فصاحت على الفور :
— يعنى قصدك إيه يا تهنى ؟ ! انا بعدد لوقت ما بقتش
أذاكر معاك ولا أكلك أبدا ، قومى يا سوسن نخرج
نذاكر بره فى الحوش لو حدنا !

ولكن القساوب الفتية التى تنبض فى حنايا تلك
الصدور الصغيرة لم تعرف بعد ما هو الحق ، وما هو البغض ،
بل تقدمت تهنى الى ناهد فربت على كتفها فى حنان قائلة :
— انت زعلتى منى يا حبيبتى ؟ والنبي أنا ما اقصد
حاجة وحشة أبدا ! ، انشالله إن كنت اقصد حاجة بطالة
أبقى أطفحها ! ..

وأردفت هذا الاعتذار بقبلة على رأس ناهد ،
ثم قالت :

— اسمعى يا ناهد ! كل البنات عارفين انك بتحى أبلة

فتحية ، لأنك عبيطة ، بتضطربى قدامها خالص ،
ما بتقدر يش تحكى عواطفك أبدا !
ولكن ناهد لم تبال بشيء من هذا الحديث ، بل
انطلقت فى سداجة تقول :

— يا خواتى أنا بحبها خالص ، خالص ! ، أنا مقدرش
يفوت علىّ يوم واحد من غير ما أشوفها وأبص لها ، وتبص
لى . . دنا كذبت على بابا امبارح وقلت له انهم طالبين
منا فى المدرسة ثلاثين قرش عشان رحلة الفيوم ، مش
خمستاشر زى ما طلبوا صحيح ، وحدث على محل فى
شارع فؤاد الأول ونا جاية العصر ، واشتريت لها عقد
حلو أوى ، ومش لاقيه أى فرصة عشان أديهو لها . . .
بس يارب تقبله ! ، دنا كل ما أكون لوحدى ، أروح
طلعه وأبوسه ! ، تعرفى ياسوسن ؟ أنا . . .

وهنا قاطعتها سوسن إذ لم تستطع صبراً على هذا
الحديث الممل ! ..

— ناهد ! إيه الكلام الفارغ اللى عماله تقوله ده ؟
بقى أنا اعقل فيك ، وانت تزدادى جنون أنا قلت لك
ميت مرة إن حبك لأبلة فتحية حيضرك ، مش حينفعك

روحى خلائيك دايما فى عالم خيالى ، عالم بعيد عن المعقول ،
لأنك عارفة كويس ان الغريزة اللى خلقها ربنا فى قلب
البنت ما يشبعهاش الحب ده ! تقدرى تقولى لى انت
بتذاكرى إيه كويس غير التاريخ ؟ ، وهل فى آخر السنة
مش حيكون الامتحان الا فى التاريخ ؟ ، يا شيخه اعقل
بقى ، قبل ما توصل الحكاية لحضرة الناظرة ، فتفكر لك
فى عقاب وحش زى وشها !

ولكن ناهد كانت كأنها تسمع حديثا فى «أبوزيد»
— يوه ياسوسن ! انتى بتكلمينى وعقلى مش معايا ،
عقلى مع أبله فتحية ، أنا بحبها أوى !
وضحكت ضحكة ساذجة بريئة تردد صداها فى
أرجاء المكان .

وعند ذلك دقت الساعة ربعا قبل التاسعة فصاحت
بهنانى مقلدة ضابطة الألعاب فى دلال :
— قوموا يا بنات !! إلى العنبر جري !! وفى السرير
نوم !!

وانطلقن يتسابقن على الدروج ثم فى الممر الطويل
إلى قاعة النوم ، حيث رصت الأسرة متجاورة على

الجانبين ويتوسط القاعة ممشي ليفى طويل يصل بين
طرفيها ، وقد وضع بين كل فراشين دولاب خشبي لحفظ
الحوائج والملابس ، وكانت الأضواء الكهربائية الخافتة
الآتزال تنعكس على الأسرة ، فكنت ترى أجساماً غضة
هيفاء ، في قمصان النوم البيضاء ، كأنها الملائكة قد هبطت
إلى الأرض !

وبعد أن اتخذت ناهد وسوسن فراشيهما المتجاورين
وذهبت تهاني إلى سريرها في طرف القاعة ، دق ناقوس
المدرسة مؤذناً باغمض الأهداب الجميلة ، على العيون
الناعسة ، وهبط ملاك النوم بأجنحته الهادئة على تلك
النفوس الوديدة الفاتنة

وما كاد صدى الرنين يتلاشى في الهواء حتى دخلت
القاعة سيدة عجوز قائمة في صوت رفيع متكلف :

— اتمسوا بالخير يا ستات

ولم تنتظر على ذلك رداً لتطفئ المصابيح الأربعة
التي كانت تضيء القاعة ، وساد الظلام والسكون ، وبدأت
كل فتاة تستعد لاحتضان النوم الهانئ ، وما يتخلله من
أحلام الشباب المعسولة

إلا ناهد ! فلم تغمض أجفانها بعد ، ولو أن الأمرين ،
إغماض أو غيره ، كانا سواء في هذه الظلمة الخالكة ، بل
ظلت تفكر فيما هي مقدمة عليه ، وكانت أطرافها
ترتجف ، وقلبها ينبض سريعاً ، يكاد يفضحها من ارتفاع
صوته ، ولم تكن لتعلم كم من الوقت قد مضى وهى تفكر ،
نصف ساعة ، ساعة ، ساعتان ولكنها فى حركة فجائية ،
مملوءة بالحيلة والحذر ، تحركت من فراشها واقفة بكل
احتراس خشية إحداث أى صوت ، وبعد أن انصتت
برهة لتطمئن على شمول السكون والهدوء ، واستغرق
الكل فى النوم العميق ، بدأت تخطو على الممشى الليفى ،
حتى خرجت من القاعة إلى الممر حيث كان الضوء خافتاً
والهدوء شاملاً

أخذت تتسلسل فى حذر زائد حتى بلغت غرف
المدرسات ، وهناك وقفت أمام أولى الغرف ، غرفة
مدرسة التاريخ ، وكانت لم تزل مضاءة بنور ضئيل ينبعث
من أحد أركانها ، كأنه مصباح مكتب أو ما أشبه ، وإذا
بيدها تمتد مرتعشة إلى الباب فتتقر مرة ، فمرتين ، وهى
تحس فى قرارة نفسها أنها إنما تقترف جريمة شنعاء

وطرق سمعها فجأة صوت مدرستها يجيب في دهشة
من الداخل :

— مين !!

وأجابت ناهد في لهجة أشبه بالتوسل والرجاء في
صوت واهن مرتعد النبرات :
— أنا . . ناهد !

وفتح الباب وأطلت المدرسة مذهولة وهي بثياب النوم

— مالك يا ناهد ؟ ! جرى إليه ! ؟

— ما فيش حاجة يا أبله . . أنا . . .

— طيب ادخلي ، وكمل كلامك . .

وفي داخل الحجرة أضاءت المدرسة المصباح الكبير
وألقت على ناهد نظرة قاسية ! ثم قالت ولم يغادرها بعد
الذهول من هذه المفاجأة الغريبة :

— إليه ؟ ! ، جرى إليه يا ناهد ؟ ؟ . .

— أصل يا أبله . . أنا شفت . . أصل أنا يا أبله . .

وانفجرت تبكي في تأثر عميق مرتمية بين يدي المدرسة
تشهق وتقبل حثما وقعت شفتها . . وظلت كالطفلة
الباكية على صدر أمها الى أن أدرك الحنان قلب المدرسة

فأخذت تمسح بشعر رأسها تهديء خاطرها ، وتربت على كتفها بيدها ، حتى زالت الثورة النفسية الحادة التي قامت في نفس الفتاة . وأخيراً خاطبتها في نغمة هادئة :

— مالك يا حبيبتى ؟ مش تكونى شجاعة شوية ؟ إيه حصل قولى لى ، اقعدى جنبى هنا وقولى لى على كل حاجة .
— مفيش حاجة يا أبله ! . . أنا بحبك ! ! . .

ولكن غصة البكاء فى حلقها ودموع الشجون فى عينيها لم يجعلها لديها قدرة على مواصلة النطق ، وكان على المدرسة أن تكيف الموقف بسياسة وحنق فأجابت :

— طيب وماله يا ناهد ! . أنا كان عارفه كده ! !
وعند ذلك مدت ناهد يدها الى صدرها فأخرجت من بين نهديها عقداً جميلاً شفاف الحبات فى زرقه السماء ينسكب الضوء خلاله ثم ينعكس فيبدو فتاناً كالماس . . .
— أنا جيت لحضرتك العقد ده هدية ! . .

— أشكرك خالص يا ناهد ! . ياه ! ! دا عقد جميل خالص ، الله ! ورنى كده ! . .

ولم تناولها ناهد إياه إلا بعد أن طبعت عليه قبلة طويلة أودعتها كل ما تشتهى من عاطفة ، وتلقته المدرسة .

فى كفها فقلبته برهة فى اعجاب ، ثم ألقى بيدها الأخرى
على كفها ناهد قائلة :

— ناهد ! ، اسمعى يا حبيبتي ! بقى أنا عاوزة أقول لك
حكاية صغيرة ، وعاوزاك تاخدى بالك أوى من كلامى ،
أحسن دى حكاية مهمة خالص ! ، بقى ياستى ، أحب انك
تعرفى ان بعض البنات عندهم استعداد قوى للحب والحنان
والعطف ، وكل العواطف دى ، ولما كان الوسط المدرسى
اللى عايشين فيه أكثر وقتهم ، لا يعطى لهم فرصة لظهار
العواطف دى ، فتجديهم يفرغوا كل مشاعرهم فى حب
زميلاتهم أو مدرساتهم ، وده طيش كبير ، وخطأ أخلاقى
فظيع ، نتيجة سيئة جداً ، وما أحبش أشوفك متصفة
بمثل هذا الطيش ، بل كل ما أحبه هو أن تلتفى لدروسك
كويس ، وتطردى من رأسك كل هذه الأوهام السخيفة
لأنك بنت نبيلة وأخلاقك كويسة ، وما أحبش حد
يقول عليك حاجة وحشة أبداً فى يوم من الأيام ، أما
العقد ده ، فأنا أشكرك عليه خالص ، لكن بدى انك
تلبسيه انت باستمرار ، علشان تتذكرى نصيحتى دى ،
وتعملى بيها . . .

وسكنت المدرسة لترى مدى تأثير حديثها على ناهد
ولكن هذه أجابت وكأنها لم تكن تسمع شيئاً :
— لكن أنا بحبك يا أبله !
وتجاهلت مدرستها هذه العبارة ، فاقتربت منها وألبستها
العقد قائلة :

— تعرفي يانا ناهد ، أد إيه أنا زعلانة منك لأنك سبتى
سريرك بعد المواعيد ، وجيتى بالشكل ده ! ، يمكن حد
شافك فى الممر ، أو يمكن الضابطة تروح تفتش على العنبر
دلوقت ، تبقى تقولى لها إيه ؟ ! .

وعند ذلك حدث ما لم يكن فى الحسبان ، بل حدث
ما فرضته المدرسة فرضاً ، فقد انطلق من خارج الباب
صوت الضابطة نفسها ترد على استفهام المدرسة قائلة :

— متقولهاش حاجة !! تبقى تقول لحضرة الناظرة
كل اللي تقدر تقوله بكره الصبح !! .

وهكذا وقع المحذور ، وعلمت الضابطة بترك ناهد
لفراشها حين ذهبت لتفتش على قاعة النوم ، فحسبتها فى
دورة المياه ، ولكنها عند مرورها بحجرة المدرسة
ولاحظت بقاءها مضامة ، أنصتت عند الباب فطرقت

سمعها أصوات من الداخل ، تبينت منها نهاية الحديث
وقالت ما قالت ، ثم عادت مسرعة الى مكتبها فقيدت
ما علمته في ملف خاص ، ورجعت الى قاعة النوم مرة
أخرى ، فرأت ناهد ترقد في فراشها باكية حزينة ، تمنى
أن لا تطلع شمس الغد !

ولكن الغد جاء ، وأسرعت الضابطة الى مكتب
الناظرة بعد ابتداء الدروس وانصراف الفتيات الى فرقهن
وكانت رئيسة المدرسة سيدة تطرق باب الشيخوخة
قد لاحت في رأسها الشعرات البيض ، فزادتها وقاراً ،
وكانت تضع فوق عينيها منظاراً ذهبياً ذا لون أزرق ، وفي
تقاطيع وجهها تبدو علائم الجد والقسوة .
وابتدرت الضابطة بقولها :

— عندك إيه في بلاغ الأسبوع يا رشيدة ؟
— حاجات غريبة يا حضرة الناظرة ! ما كنتش أظن
أن البنات تصل بهم الجرأة إلى هذا الحد !!
— ليه جرى إيه ؟

وسحبت الضابطة من تحت إبطها ملفاً ففتحتته وأخذت
تقرأ منه في لهجة حادة عنيفة :

أولاً : عيشة ربيع بالسنة الثالثة فصل ثان . رأيته
تركع بجانب سرير زينات الكفراوى بعنبر نوم السنة
الخامسة ، وتقول لها « أنا باعبدك يا زينات من كل قلبي !
شوفي البلوفر الجميل ده اللي عملتهو لك . والنبي أنا تعبت
فيه خالص . بقي لى شهرين الكفن طلع حلواوى ! »
وعند ما لمحتنى غيرت لهجتها وجعلت تسألها « لكن إيه
السبب يا زينات فى أن الرياح الموسمية التى تهب على الهند
من الشمال لا تحمل أمطاراً ؟ ! »

ثانياً : فريدة حسين خالفت قوانين المدرسة ،
ودخلت الحمام فى غير اليوم المقرر لها ، وأحدثت أصواتاً
مزعجة جداً عند عودتها فى الممر الذى يوصل إلى غرفتها !
ثالثاً : فى حصة الطبيعة بالسنة الرابعة على تبجحت
إحسان الغرباوى على المدرس فسألته سؤالاً محرجاً :
« ليه يا فندى فيه مغناطيسية بين أفراد الجنسين من بنى
آدم ، وما فيش بين أفراد الجنس الواحد ؟ » فأخرجها
من الحصة وقدم فيها هذا البلاغ

رابعاً : فى عنبر رقم ٤ كانت بديعة اسماعيل تخرج
أصواتاً مزعجة بعد إطفاء الأنوار ! !

خامساً : والآن يا حضرة الناظرة أرجو حضرتك
الانتباه قليلا إلى هذا البلاغ ، فهو الأول من نوعه في
المدرسة منذ استلامى العمل فيها ، وأرجو أن تتخذى
حضرتك كل الاجراءات اللازمة لمكافحة هذا الداء الويل
المعدى ، الذى يفسد أخلاق البنات ويوجهها توجيهاً
غير طيبعى بالمرّة ، وهو حب البنات للمدرسات ، أو
حبهم لبعض ، فقد كنت أفتش أمس في عنبر ٣ بعد أن
دق جرس النوم بنصف ساعة ، فأضأت النور ، فلاحظت
أن أحد الأسيرة فارغاً ، فلما اقتربت منه وجدته مرتباً ،
كأن صاحبه — ناهد طلعت — لم تلمسه فسألت عليها
جارتها سوسن التى كانت مستيقظة ، فأجابت أنها ربما
ذهبت إلى دورة المياه

وكانت مضطربة في إجابتها ، فلم أقتنع ، وداخلى
الشك ، وبعد أن مررت على بقية العنابر عدت لأرى إن
كانت رجعت أم لا ، وبينما أنا سائرة في الممر لاحظت
أن حجرة الست فتحة مضاءة بالنور القوى ، وسمعت فيها
صوت حديث ، فاقتربت من الباب فسمعت صوت بنت
تقول في لهجة مؤثرة : « لكن أنا بحبك يا أبله ! » وبعد

سكون دام لحظة سمعت ست فتحية تجيبها « تعرفى ياناهد
أد إيه أنا زعلانه منك لأنك سبتى سريرك بعد المواعيد
وجيتى بالشكل ده ، يمكن حد شافك فى الممر ، أو يمدن
الضابطة تروح تفتش العنبر دلوقت ، تبقى تقولى لها
إيه ؟ ! » واضطرت أنا الى التدخل فى هذه المسألة الخطيرة
فقلت من خارج الباب : « متقولهاش حاجة ! تبقى تقول
لحضرة الناظرة كل اللي تقدر تقوله بكره الصبح ! »
وسكتت الضابطة فجأة وكان الانفعال قد بدا على
وجهها منذ البدء فى تلاوة البلاغ وزاد الى حد كبير عندما
انتهت من قراءته

وكان للبلاغ نفسه أثره القوى على مشاعر الناظرة ،
التي كان وجهها يتجههم كلما استمرت الضابطة فى الحديث
حتى إذا انتهى قالت فى انفعال شديد :

— بقى لحد هذه الدرجة أسمع إن فيه بنات فى المدرسة
بهذا الشكل ؟ ! ! ، اخرجى حالا اندهى لى كل البنات
الى ذكرتى أسماءهم ، وما تنسيش البنت المنحطة المجرمة
دى . . . ! !

وخرجت الضابطة يملؤها شعور الفخر باكتشاف

هذا السر الخطير ، وذهبت تجمع المتهمات الخمس ، حتى
إذا اكتمل عددهن ، ساقتهن الى غرفة التحقيق .
وضغطت الناظرة على زر كهربائى أمامها ، فدخلت
المتهمة الأولى عيشة ربيع ، ولم تترك لها الناظرة فرصة
التحية بل فاجأتها بقولها :

— انت عندك استعداد للالتحار فى سيدى زينات
الكفراوى والا لا ؟ البلوفر اللى عملتيهولها حير جمع
بينك تانى ! وجنابك مرفوته أسبوع تقدرى تناجى فيه
طيف محبوبتك يا منحطة وتكلى لها البلوفر عشان يبقى
فستان ، وغير كده مكتوب لك انذار بالفصل ،
اتفضلى بره ! لا ! مش عاوزة اسمع حاجة ، امشى اطلعى
بره ! ! ..

وخرجت عيشة ربيع تتعثر فى مشيتها تكاد تتفجر
من فرط الغيظ والكمد ، ورن الجرس الثانى ودخلت
فريدة حسن ..

— حضرتك مش مبسوطة من القوانين اللى أنا
واضعها عشان نظام المدرسة ، والا إيه ؟ ! —
— لا والنى يا حضرة الناظرة ، أصل أنا عندى

روماتزم ، وخايفة ألبس الشبشب ، لأنه مو حصل جيد
للرطوبة ، أما القبقاب فمصنوع من الخشب !
— كل ده كلام فارغ ! عاوزة تضحكى على يا بنت ؟ !
وبتستحمى فى غير اليوم المقرر لفرقتك ليه ؟ !
— أصل يا حضرة الناظرة ما كنتش اقدر انتظر لحد
اليوم المقرر !

— بنت جريئة متبجحة ! ! — متقدريش تنتظرى
اليوم المقرر ، اللى هو بعده مباشرة ، مش كده ؟ — نمرتين
أخلاص خصم ، ومفیش مرواح الجمعة دى للبيت ، تقعدى
هنا حضرتك عشان تذاكرى قوانین المدرسة كويس !! .
ودق الجرس الثالث مؤذنا بانصراف المهمة الثانية
ودخول المهمة الثالثة ، احسان الغرباوى
— إيه ياستى الأسئلة دى اللى تدل على ذكاء نادر ؟
وابتسمت احسان وظنت أن الناظرة تتلطف معها
فقالت :

— العفو يا حضرة الناظرة ، أنا بس ...
ولكن الصوت الأجش الذى قفز من حنجرة الناظرة
جعل المسكينة تبتلع بقية عبارتها ..

— اخرسى يا متبججة ! - اخرسى ! ! .. اتم فاكرين
نفسكم فى إيه ؟ - فى شارع ولا فى غرزة ؟ - إيه الأفكار
المنحطة اللى تخلى الواحدة تنطق بمثل هذه الأسئلة السافلة !
اتم ؛ اللى لا يجب مطلقا انكم تفتحوا عيونكم أو عقولكم
على هذه المواضيع الفاسدة ، انت جرثومة خطيرة
لا أستحسن وجودها بين فتيات بريئات ، عشان تحولى
مجرى أفكارهم لهذا التبذل الوقح ، أنا لازم اكتب لولى
أمرك عشان ياخذك يريك شوية ، وأحرمك من حضور
الدروس أسبوع !!

ولكن احسان تبكى وتتوسل قائلة :

— والنبي معلهش يا حضرة الناظرة ، اعملى معروف
أحسن بابا شديد على خالص ، أنا أحلف لحضرتك بالله
العظيم إنى ما بقيت أسأل أسئلة تانى أبدا !
— الكلام ده تقوله للبابا بتاعك ، يللا اتفضلى
بره ! أنا معنديش وقت ، واللى قلته هو اللى حيمشى ،
يللا ! ! ! ..

وهكذا تنصرف إحسان دون أن تنبس ببنت شفة .
وفى هذا الوقت تدخل الضابطة ويدها أحد الملفات

فتضعه امام الناظرة ثم تعود شطر الباب فتستوقفها
الناظرة بقولها .

— ابعثى لى يار شيدة . بديعة اسماعيل وناهد طلعت
مع بعض .

أما ناهد فقد كانت طول وقت التحقيق تقف مستندة
إلى الجدار خشية السقوط . فقد امتقع وجهها وشحب ،
واعترأها الذهول ، ولا عجب فقد قضت طول ليالها مضطربة
وجلة تتعثر فى رأسها مئات الأفكار والمخاوف ، عما
سيأتى به الغد ، وكانت كلما اقترب ميعاد دخولها عند
الناظرة ، شعرت بانحطاط فى قواها واختلاج فى ساقها ،
واضطراب فى ضربات قانها .

ولما أخبرتها الضابطة بوجود دخولها مع بديعة ،
استندت إلى زميلتها ، ودخلت الاثنتان مضطربتين وشتان
بين اضطراب واضطراب .

وتجاهلت الناظرة وجود ناهد بالمرة ، ونظرت إلى
بديعة شزرا ، فأسرعت هذه إلى الكلام دون استئذان :
— والنبي ما عملتش حاجة يا حضرة الناظرة . أصل
الظابطة متغاضة منى وعاوزانى أتعاقب من غير سبب !

— اخرسى ياقليلة الأدب ! البلاغ يقول انك كنت
بتخرجى أصوات مزعجة بعد انطفاء الأنوار ، ودق ناقوس
النوم ، عاوزه اكثر من كده سبب عشان يتحذف لك
نمرتين أخلاق ، ومتخرجيش فى أجازة الاسبوع ؟
— وإيه هى الأصوات اللى كنت بخرجها يا حضرة
الناظرة ؟

— الأصوات ؟ طبعا كانت أصوات قبيحة ، جديرة
بالشكوى !

واستغربت الناظرة من نفسها الاجابة على سؤال
الفتاة فصاحت بها :

— بتسألينى يامتبيجة عن ماهية هذه الأصوات ؟
— لا والنبي يا حضرة الناظرة ، ده كان صوت واحد
بس ! صوتى أنا لوحدى بس ! كنت بغنى شوية صغيرة ،
يعنى بشويش ، ولما دخلت الظابطة رحلت ساكته

— كان بتقولى انك بتغنى ياوقحة ! حضرتك حطلى
مغنية ؟ أمال كنت جايه المدرسة ليه ؟! العقاب اللى قلت
عليه هو اللى ينفذ ! يللا اخرجى يامتبيجة ! يا .. يامتبيجة !
وتخرج بدبعة اسماعيل ممثلة بالحقد والكراهية نحو

الناظرة والظابطة معاً ، وما نبلغ الباب حتى تتمم « والنبي
لأوريك يا ظابطة القرد يا وحشه ! »

وسمعت الناظرة تتممة الفتاة فصاحت بها :

— بتقولى إيه يا بنت ! ؟

— بقول ، الله يخليك يا حضرة الناظرة !

وأسرعت الى الخارج . . .

وجاء دور ناهد المسكينة ، وكانت لا تزال تقف
مستندة بيدها الى رأس أحد المقاعد ، وجهها شاحب ،
وعقلها تائه ، وعيناها مستقرتان على لا شيء ، تفكر في
أمر واحد ، فى العقاب الذى ستوقعه عليها الناظرة ، تنبأ
بقسوته وفضاعته ، ومقياس ذلك عندها هو بعدها عن
« أبله فتحية » معبودتها .

وفجأة تدوى صيحة قاسية تنطلق من فم الناظرة فى
وجه الفتاة ، كأنها توقظها من سباتها المعنوى بوحشية :
— ناهد !!

وتنتفض المسكينة ولا تجيب

ويهبط صوت الناظرة الى سلم السخريه وتقول :

— جنابك بتحي فى المدرسة !! وبتحي مين ؟ احدى

المدرسات ! ويمكن كان أحد المدرسين ، وتتجرئي على انتهاك حرمة المدرسة ، وشرف المدرسة ، وقدسية المدرسة بهذا الشكل الوقح الدنيء !!!

وكان الصـوت يعلو ويعلو كلما اقتربت الى نهاية العبارة حتى بلغ درجة الصياح ، ولكن ناهد المسكينة لم تجد صوتها لترد

— مالك واقفه كده زى الصنم ! طبعاً عقلك يدرك فظاعة العمل اللي اقترفته ، ردى على !! عندك إيه تقوله ؟ بكل تأكيد بتعترفي بكل جراءة بهذه الفعلة الشنيعة ، إذن أنت مفصولة من المدرسة من اليوم !! من دلوقت حالا ، مش عايزه أشوف وشك هنا تانى ! يا فاسدة يا مجرمة !! والمدرسة بريئة منك ومن أمثالك وأفعالك !!

وعند ذلك انفجرت الفتاة باكية فى حرقه شديدة بعد أن جردها الذهول من كل عاطفة ، وتصل الضابطة فى الوقت المناسب ، فتلقى تعليمات الناظرة بشأن الفتاة :

— اسمعى يا رشيدة ! أنا قررت فصل ناهد طلعت من المدرسة نهائياً ابتداء من اليوم ، وحكيت للوزارة بذلك ، وعندك وقت لغاية الظهر ، تطلعي فيه أوراقها ، وتبعي

عم أحمد يوصلها لغاية البيت ، وقبل مايمشى خليه يفوت .
على ياخذ جواب منى لأبوها ، وطبعاً ما يتنقلش من
عندهم إلا بالايصال اللازم باستلام الجواب والأوراق ،
وبوصول البنت .

وهكذا صدر الحكم القاسى على ناهد الجميلة بأن تغادر
المدرسة وتناى عمتن تحب ، ولم يكن ذلك عندها بأقل
فضاعة من الحكم بالنفى أو التشريد .

* * *

حضرة المحترم طلعت افندى محمود
بعد التحية ، يؤسف إدارة المدرسة أن تضطر
لا بلاغكم بأنها ترى من مصلحة ابنتكم ناهد أن تنقطع
عن المدرسة من الآن ، بعد أن بدر منها ما يوجب هذا
التصرف تأديباً لها ولأمثالها ، والمدرسة تؤكد لكم أنها قد
أدركت الخطر قبل أن يستفحل ، وإنها لذلك تسرع بفصل
التلميذة المذكورة خشية وقوعها فيما لا تحمد عقباه ...

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام
ناظرة مدرسة ... الثانوية للبنات

الامضاء

ذهل طلعت افندى عند قراءة هذا الخطاب ، وأول
ما خطر له أن أمراً يتنافى مع الشرف أو الفضيلة قد بدر
من ابنته ، وكاد يصيح في الفتاة التي وقفت بجانب خادم
المدرسة شاحبة الوجه غائرة العينين ، ولكن عطف
الرجل على ابنته وثقته بأخلاقها وسيرتها بددت من رأسه
ذلك الضباب الحالل قبل أن يتكاثف ، وغاب عليه حبه
لها فأثر السكوت وقتئذ ، مكثفيا بالانصراف إلى غرفة
مكتبه بعد أن وقع على الايصال وناول له للخادم ، وبقيت
ناهد واقفة في شرفة البيت التي تطل على مدخله ،
حتى ليحتها أختها الصغيرة سعاد فجاءت تجرى اليها فرحة
بمقدمها

كان طلعت افندى من كبار تجار الجملة ، قد أخلص
في عمله ، ففتح الله عليه ، ورزقه سعة من العيش ، فكان
يسكن في بقعة هادئة ، في ضاحية جميلة من ضواحي القاهرة ،
هي حدائق القبة ، بيتاً أنيقاً مستقلاً أحاطت به حديقة
واسعة لها سياج قد اكتسى بأزهار الياسمين .

ولقد ألجمت الصدمة لسانه فانصرف إلى مكتبه
وجلس معتمداً رأسه بين يديه ، يقلب صفحات فكره عما

يكون هذا الأمر الخطير الذى بدر من ابنته . وكان من أثره المباشر فصلها النهائى من المدرسة .

إن حبه لابنته ناهد لأعظم من أن يوصف ، فقد تولت شريكة حياته منذ سبع سنين ، وتركت بين يديه ناهد وأختها سعاد ، التى لم تك بعد أكملت سنتها الأولى ، ولم يفكر يوماً فى الزواج ، لشدة حزنه على زوجته ، إذ كان يحبها الحب كله ، حباً عميقاً متأصلاً فى أنحاء فؤاده وعقله ، ويحب بنتيه ويضنّ بهما على أن تتولى رعايتهما امرأة أخرى ، قد لا تحنو عليهما حنو أمهما . أما شغفه بناهد فقد زاد كثيراً حينما بلغت أشدها ، واكتملت أعضاؤها ، فأصبحت لها هيئة أمها وأوصافها ، وجهها وشعرها ، وعيناها وقوامها ، كل ما بها كان يشعره دائماً بأنه يرى أمها حية ناطقة ، ولذلك اعتاد أن يطيل معها فى الحديث ، فيعجب بذكائها وصفاء تفكيرها وصواب رأيها ، ويجد فى ذلك راحة كبرى لنفسه الحزينة .

ولذا فلم تكده أفكاره تنطلق به فى كهوف الشكوك المظلمة حتى جذب عنانها وحوّلها إلى ناحية أخرى حيث ألقت ثقته فى أخلاق ابنته وطهارة نفسها على الموقف

ضوءاً تبددت أمامه ظلمات الظن السيء ، وتحول جزعه
إلى مجرد القلق ، وهدأت أمواج أفكاره بعد ثورة عنيفة .
وأخيراً ترك غرفته متأبطاً بعض الأوراق وخرج
دون أن يفتح ابنته في أمر ، بل دون أن يشعر
أحداً بخروجه .



ولقد اعتسفت ناهد في غرفتها اعتكافاً تاماً منذ
اللحظة التي عادت فيها إلى البيت ، فلم تتناول غذاء ولا
عشاء مع أختها سعاد رغم إلحاح الخادمة مبروكة
وعند ما أصبح الغد كانت عيناها لم تجف من الدموع ،
ولم تدع فراشها بل ظلت تتقلب عليه في ثورة نفسية
شديدة ، لم يكن يدرى أحد من البيت ببواعتها وأسبابها .
وقد حاول طلعت افندى يومئذ الدخول إليها قبل
ذهابه إلى عمله ، للتحديث معها ولو في شئون أخرى ،
فأشارت عليه مبروكة الخادمة بالتريث قليلاً حتى تذهب
عن ابنته آلام الصدمة ، لأن فصلها من المدرسة قد أثر
عليها كثيراً ، وكان في رأى مبروكة نتيجة لأسباب تافهة
أو ربما لجدال بينها وبين أحد المدرسين .

ولما جاء العصر دخلت سعاد الصغيرة تجرى ويدها
دب كبير أبيض حتى بلغت فراش أختها فألفتها جاثمة على
الوسادة تبكي بكاء خافتاً ، ولم تكن الصغيرة بالتى تفهم
لهذا معنى ، بل صاحت مبهجة :

— شوفى يا أبله اللعبة اللى جابها لى أبيه الدكتور !
ولكن ناهد لم ترد ، فجذبت أختها كرسياً وصعدت
عليه إلى السرير ثم هزت كتف أختها مُعيدةً ما قالت ،
ولكن هيات أن ينحسر الظلام الذى انتشر فى فؤاد
الفتاة عن فرجة من نور الهجة أو السرور ، ولذا فلم تجد
الصغيرة بداً من تركها فى شئونها مسرعة إلى غرفة
الاستقبال .

جلس طلعت افندى يستمع إلى محدثه الدكتور مراد ،
ابن المرحوم أخيه ، جاء لزيارته بعد طول غياب ، وقد
كان هذا الشاب رزيناً وديعاً ، تعلو محياه الرقة ولا يسع
من يراه إلا أن يشعر نحوه باعجاب مقرون بالاحترام .

جاء الدكتور مراد مسلماً على عمه مستفسراً عن
صحته وصحة بنتيه ، بعد أن عاد من مأموريته بالفيوم ، ولم
يكن بطبيعة الحال يتوقع وجود ناهد بالبيت ، ولذا

فلم يذكر عنها شيئاً في حديثه ، حتى حضرت سعاد
نخاطبها مداعياً :

— خلى بالك يا سوسو من الدبة كويس ، أحسن
بعدين تاكل مبروكة !

فأجابت الصغيرة بظرفها المعهود :

— ما تخافشى يا أبيه ، مبروكة لجمها اسود وحش !!
ثم التفتت إلى أبيها هامسة :

— بابا ! أبله كل ما أكلها مش عاوزه ترد على ! .

وهنا انتبه مراد الى أن ناهد بالبیت فنظر الى عمه
متسائلاً لأن اليوم لم يكن يوم عطلة ، فأدرك طلعت افندى
مايرمى إليه ، وقبل أن يجيب بشيء ، التفت الى سعاد قائلاً :
— روى يا سوسو افتحى الراديو واسمعى حكايات
بابا صادق .

ثم سكت برهة ، وعاد يقول :

— والله يا ابني أنا فضلت أخيراً إني أحجز ناهد من
المدرسة ، تقعد فى البيت تتعلم لها كام حاجة فى المطبخ ،
وتقوم بتدبير البيت ، عشان تكمل تعليمها المدرسى .
ونظر الدكتور إلى عمه نظرة طويلة ثم قال :

— تسمح لي يا عمي أتكلم في موضوع .. ربما .. يعني ،
يكون جرىء شوية ؟ .

— أستغفر الله يا بني ، اتفضل اتكلم في أى موضوع
من غير استسماح !

— لا يا عمي ، الموضوع اللي عاوز أتكلم فيه عاوز
إذن .. بقي حضرتك تعرف أخلاقي كويس ، وتعرف
إني والحمد لله عندي موارد رزق لا بأس بها

— العفو يا بني ليه جرى إيه لا سمح الله ، ربنا يفتح
عليك كان وكان .

— الله يحفظك يا عمي ، أنا بس كان بدى أسأل إذا
كانت ناهد حد خطبها وعشان كده قعدت في البيت .
— لا يا بني أبداً ، أنا قات لك على كل ما في الأمر ،
مفيش حاجه أبداً من اللي بتقوله .

— طيب أقدر أحوز الشرف ده يا عمي ؟
وهنا تفتحت أسارير الرجل وشملته نشوة خفيفة من
الفرح وقال مبتسماً .

— بقي يا مراد عمّال تحيرني وتدورني عشان
تسألني السؤال ده ! يا بني دنا عمك ، وانت غالى عندي .

زى بنتى تمام ، واحنا طبعاً أهل ، وأنا يهمنى جداً انى
أسعدك وأسعد بنتى ، وما عنديش أى مانع ما دام انت
عاوز كده .

— صحيح يا عمى ؟ أنا أشكرك جداً وأعدك أنى
سأبذل كل ما فى وسعى لاسعاد ناهد دائماً أبداً ، بس
أرجو ان ما يكونش فى الجو غيم لأنى شايف حضرتك
قلقان شوية !

— مفيش حاجه يابنى ، بس أنا مش عارف ليه ناهد
من ساعة ما جت من المدرسة ، وهى مزاجها متعكر أوى
وزعلانة خالص !

— غريبة يا عمى ، يمكن زعلانة علشان حجزتها من
المدرسة ، وربما كانت تحب مواصلة تعليمها ، أو شىء من
هذا القبيل . . . لكن ليه حضرتك ما أخذتش رأيها
فى المسألة دى ؟

— والله يا مراد أنا خايف على البنت تكون عيانه
لأنها بقالها يومين ما دأقتش حاجة أبدا .

وبدا الاضطراب على وجه الشاب فقال :

— تسمح لى أشوفها يا عمى ؟

— اتفضل يا ابني .

* * *

ارتعبت ناهد حين رفعت عينيها التي قرحهما البكاء
فرأت أباهـا واقفاً بجانب الفراش يبادرها بقوله :

— مالك يا حبيبتى؟ أنا خائف تكونى عيانه ولا حاجة،
والدكتور ابن عمك جه دلوقت وعاوز يسلم عليك فقومى
يا حبيبتى اغسلى وشك وغتيرى فستانك .

ولكنها أجابته بقولها :

— أنا تعبانه أوى دلوقت يا بابا !

— لكن يا بتى دا عاوز يسلم عليك !

— معلمش يا بابا خليه يتفضل هنا لأنى مش قادرة
أقوم أبدا ، تعبانه أوى !!

وبعد لحظة كانت ناهد خلالها قد جففت دموعها
ورتبت من هيئتها المشعثة الحزينة ، ودخل مراد وتقابلت
نظراته بها ، فأزعجته هيأتها الذابلة وطلعتها الشاحبة .

— سعيدة يا ناهد ! انت وحشتينى أوى ! . إزيك

مالك كده ؟ تعبانه ؟ ...عندك إيه ؟ ؟ .

— مافيش حاجة يا مراد . أشكرك !

وتكلم الأب فقال :

— مراد بدّه يشوفك ياناهد، يحس نبضك، وقيس درجة حرارتك، يمكن يا بنتي يقدر يوصف لك حاجة تروق مزاجك وتفر فشك شوية ! ...

ولم تجب ناهد بل مدت يدها إلى الدكتور فتناولها وضغط على النبض بابهامه فألفاه مضطرباً سريعاً ؛ ثم أخرج من جيبه مقياس الحرارة فناولها إياه لتضعه تحت لسانها برهه ...

— إنت ياختي معندكيش حاجة من الوجهة الجسمية بس يظهر أن عندك أرق شديد ، وما بتاكليش كفاية ، يظهر نفسك مسدودة ، وأعصابك تعبانه ، والمهم الراحة التامة ، والغذا الخفيف دلوقت ، وحكتب لك على دوا تبقى تشربى منه معلقة شوربة قبل كل أكلة بنصف ساعة . ولكن ناهد مازالت صامتة تائهة البال ، فالتفت مراد إلى عمه قائلاً :

— معلمش ياعمى ، نقدر نسيبها تستريح شوية ، ونروح إحنا نقعد هناك .

وفي غرفة الجلوس تطلع طلعت افندى إلى ابن أخيه .

يستزیده بیاناً عن حالة ابنته إذ كان يشعر أنه يخفى عنه أمراً.

— إيه يا مراد أنا شايفك مشغول على ناهد ؟ !

— والله يا عمى أنا رأيي ان ناهد عندها إجهاد عصبي

شديد ، لأنى لاحظت أن وجهها شاحب جدا ، وعينها

مقرحة من البكاء ، وده يدل على انفعال شديد .

— عجيبه يا مراد ؟ !

— وعلى ذلك أنا أرجح أنها لا بد مشغولة الفكر جداً

من ناحية مسألة خاصة ، فما بتنا مش كفاية ، وطبعاً ربما

حضرتك عارف شىء عن هذه المسألة

— أبدا يا بنى ، أنا فى الحقيقة شايفها مهمومة جداً فما

أردتش أفاتحها فى حاجة ، خوفاً من زيادة همها

— بالعكس يا عمى لازم تتكلم معاها وتعرف الأسباب

بالضبط ، فربما تكون مسألة مش صغيرة ، والمشاغل

النفسية من أصعب المؤثرات على الصحة ، وفى كثير من

الاحيان يصعب على الدكتور تشخيص المرض إذا كان

السبب نفسانى ..

وبعد برهة انصرف الدكتور وعاد طلعت افندى الى

غرفة ناهد فوجدها نائمة .

لقد كان سرور طلعت افندى عظيما حين رأى ناهد
تفريق قليلا فى صباح اليوم التالى ، وتخرج من غرفتها الى
حديقة البيت لتجلس فى أشعة شمس الصباح ، وتسلى
الوالد حتى دنا من مقعدها دون أن تحس هى بذلك فأخفى
عينها بكفيه وسكت لتجيب ، ولكنها لم تمهله إذ قالت
فى فتور

— بابا

وأجاب أبوها فى صوت مبتهج :

— صباح الخير يا نونا ، انشالله تكونى كده

ففى ورقى !

— الحمد لله يا بابا

— طبعا كنت واخدة بالك مين اللى زارنا امبارح

وجه سلم عليك فى أوضتك ؟

— آ ، الدكتور مراد ابن عمى ؟

— يا مكاره ! ، أمال كنتى سارحة بعقلك فىن ،

وما كنتيش بتردى عليه كويس ؟

— مفيش حاجة يا بابا

— بقى ياستى أنا عندى حته مفاجأة علشانك ، لكن

ظريفة أوى ، بس قبل ما أقولها لك ، عاوزك تعديني
انك تصرحى لى عن سبب زعلك و حزنك بهذا الشكل
الفضيع ، أنا أبوك يا بنتى ، ولازم نقول لبعض على كل
حاجة ، مش كده ؟ 1

وتلهفت ناهد إلى سماع هذه المفاجأة الظريفة ، ولاح
فى أفق مخيلتها وجه أبله فتحية الصبوح المحبوب .. ولم
ينتظر الأب سماع إجابة ابنته بل قال :

— إمبراح مراد فاتحنى فى أمر زواجه !
وصبر ليرى مدى تأثير هذا التصريح على ابنته فلم
تبد على وجهها أية عاطفة

— عاوز يتجوزك يا نونا 11

— يتجوزنى أنا ؟

قالت ذلك والانزعاج يبدو واضحا فى نبرات صوتها :

— أيوه ! ، طبعا إنتى لازم تكونى مبسوطة وسعيدة ،

مراد ابن عمك ، من أحسن الشبان تربية وأخلاقا !

— لا يا بابا ، أنا مش عاوزة أتجوز !

— مش عاوزة تتجوزى ؟ غريبة ، إزاي مش عاوزة ؟ 12

يعنى مش عاوزة ليه ؟ ؟

— مش قادره أتكلم دلوقت يا بابا ، أنا أعصابى
تعبانه خالص ، اسمح لى أدخل استريح شويه
ولكن هذه الاجابة الفاترة أغضبت طلعت افندى فكاد
ينتهرها ويصيح فى وجهها ، ولكن حبه لها غلب عليه
فتركها تنصرف فى سكون

وأغلقت ناهد باب غرفتها ثم انكفأت على السرير
تبكى من جديد ، وبعد برهة عادت الى منضدة صغيرة فى
ركن الحجرة فأخرجت من قفطرها كراسه تحوى أوراقا
للخطابات ، وقلبا للكتابة ، وجلست تفكر لحظة ثم خطت
على الورقة الأولى بضع كلمات ، ثم مزقتها وأردفتها بأخرى
وثالثة . ثم أعادت الكراسه والقلم الى القفطر ، وعادت
الى الفراش تنتحب ..

وفى عصر اليوم التالى دق جرس التليفون فى مكتب
الدكتور مراد فأسرع بقناوله .
— أفندم !

— . . .

— آ، عمى ، نعم يا عمى ، انشالله تكون ناهد أحسن النهارده !

— إهيه !! حرارتها ٤٠ ! يا سلام ! ، وما بتتكلمش
كان ، طيب أنا جى حالا ، سلام عليكم .

وعند ما دخل الدكتور مراد حجرة ناهد وجد عمه
وسعاد والخادمة فى أشد حالات الاضطراب والوجوم ،
والآب يتناول كمادات الخل من مبروكة فيضعها على جهة
ابنته ، التى تشن أنات طويلة بين آونة وأخرى .

ألقى الدكتور تحية خافتة على عمه ثم أسرع الى
الفراش وأخرج من حقيبته مقياس الحرارة فوضعه بين
شفتى ناهد وهى لا تبدى حراكا ، وأشار الى مبروكة
لتذهب فتغلى أدوات المحقن فى الماء

كان النبض مضطربا سريعا ، والوجه متجهما محققنا ،
والشفتان منفرجتين

— فيه حاجة يا عمى أثرت عليها النهارده ؟

— ما فيش حاجة يا مراد ، أنا والله غلبت فى البنت
دى ، أستغفر الله العظيم ، الصبح كانت رايقة شوية
وقعدت فى الفرندة ، فقعدت معاها عشان أفتحها فى بعض
الحديث ، وكنت أفكر أنها يمكن تفرفش ، ولكن ..

وصمت طلعت افندى برهة فتساءل مراد :

— ولكن إيه يا عمى ؟

— معلمش يا بنى ! بعدين اقوللك ، ده مش مهم دلوقت !

— آ ! لازم رفضت اقتراحى بتاع امبارح ، طيب

خلينا هنا

وكانت مبروكة قد جاءت بأدوات المحقن فأعدها

الدكتور واقترب من الفراش هامسا

— ناهد . . ناهد ! . ناهد ! !

ولكنها لم تجب ، وتبادل الواقفون نظرات القلق ،

وخاصة عند ما لمس الأب يد ابنته فوجدها تكاد تلهب

من شدة السخونة ، وأنفاسها تتردد فى سرعة واضطراب .

— أرجوك يا مراد تعمل حاجة ! - اديها حقنة

ولا أى شىء !

— متخافش يا عمى ، ده دور حمى شديد شوية ،

ولكن حيزول بسرعة

وعند ذلك سمع صوت خافت يخرج من بين شفتى

ناهد ، فانكب الكل نحو الفراش يرون ماذا تطلب ،

ولكنها لم تطلب شيئا بل كانت تهذى من فرط الحمى . .

كانت تقول « أبله .. أبله .. بتحبينى يا أبله .. زى ..
ما بحبك .. لا .. لا .. يا سوسن .. أنا بحب أبله ..
أبله فتحية .. » ثم عادت الى غيوبتها

وهنا اعترت الدهشة كلا من أبها وابن عمها .. فمن
تكون « أبله فتحية » ؟ ، ومن تكون « سوسن » ؟ .. ولكن
الدكتور قطع حبل السكوت بقوله :

— عمى ! ابعت حد يجيب الدواء ده من الازر خانة

دلوقت !

وأبرز من جيبه محفظته فأخرج منها ورقة كتب عليها
اسم الدواء ثم تناول المحقن وعاونه عمه فى افراغه فى
ذراع ناهد

انتهت الأنسة فتحية وصفى من إلقاء درس التاريخ
فى السنة الثالثة ، وعادت الى غرفتها الخاصة تستريح قليلا
ساعة الفراغ حتى يحين الدرس التالى ، وما كادت تضع
أوراقها على المنضدة حتى سمعت طرقا بالباب ، وكانت هى
رشيدة الضابطة ويدها خطاب ، ولقد دهشت الأنسة
حين قلبت الخطاب بين أصابعها بعد انصراف

الضابطة ، وذلك لغرابة الخط عنها ، ولكنها فضته بسرعة
فقرأت به ما يلي :

حضرة المربية الفاضلة الآنسة فتحية وصفي
بعد الاحترام والتحية ، أتشرف بكتابة هذا إليك
مذكرا حضرتك بالطالبة ناهد طلعت التي فصلت من السنة
الرابعة منذ أربعة أيام ، وذلك لسبب لا زلت أجهله ،
هذه هي ابنتي ، وهي الآن مريضة ، وقد اعترتها بالأمس
حمى شديدة ، وورد اسم حضرتك على لسانها أثناء
هذيانها ، قائلة أنها تحبك كثيراً ، وقد نصحننا الطبيب
المعالج أن أرجوك التكرم بالحضور لرؤيتها قبل استفحال
أمرها ، لعل في ذلك مخفف عنها

وتفضلني بقبول عظيم الشكر والاحترام

طلعت محمود

وهكذا فهمت الآنسة فتحية أن المسكينة ناهد لم تكن
الاجادة في عاطفتها ، وجادة الى هذه الدرجة من التعلق
والاخلاص ، وأن المرض قد ألم بها منذ فصلها من
المدرسة بسبب تلك العاطفة الشاردة

ولذا فقد أسرع الى المنضدة وحررت مذكرة الى

الناظرة بأنها مضطرة لأمر هام لمغادرة المدرسة بعد انتهاء
الدرس التالى ، وستعود مساء اليوم نفسه

ولقد كان لاهتمام الدكتور مراد بناهد وسهره
بجانها الى ساعة متأخرة من الليل أثر مباشر فعال فى هدوء
حالتها ونجاتها من براثن الحمى، وقضائها ليلتها فى نوم هادىء
سليم من الهذيان والأرق ، وقد أصبحت وحرارتها
عادية ، وزهونها حاضر ، رغم الذبول الذى لما يزل بادياً
عليها ، والوهن الذى كان ظاهراً من حركاتها

ولم يغب الدكتور عن بيت عمه أكثر من ست
ساعات عاد بعدها ليتناول طعام الغذاء مع عمه ثم ليوصل
عنايته بناهد ، التى يحبها ويتغنى اتخاذها شريكة لحياته

وعند ما كان الاثنان يشربان القهوة فى غرفة
المريضة ، دخلت مبروكة تهمس لسيدها

— فيه ياسيدى واحدة ست عاوزة تقابل حضرتك،
ودخلتها أودة الجلوس

— طيب

ونفض طلعت افندى شاعرا أن هذه السيدة لا بد وأن

تكون الأنسة فتحة ، وبقي الدكتور مراد ينتظر على
أحر من الجمر مشاهدة أثر المفاجأة على ناهد حتى تبدد
الشكوك التي ملأته منذ رأى خطيبته حزينة مهمومة ،
وسمع من عمه أنها نافرة من الزواج منه غير راغبة فيه
كانت ناهد في اللحظة التي دخلت فيها مدرستها قد
غلبها النعاس ، ولكن الأنسة فتحة التي لم تفتن لذلك
أمسكت ييدها وشدت عليها في حنان قائلة في صوت
رقيق مدلل .

— ناهد !

ودارت ناهد بوجهها ناحية الصوت ، وكانت عيناها
ذابلتين ولكنهما أبرقتا عند ما وقعتا على وجه الحبيبة الغائبة
— آه ! أبلة ! !

وانتفضت جالسة تريد أن تقبلها ، ولكنها تنهت الى
وجود والدها وابن عمها بالحجرة فكبحت جماح نفسها
— مالك يا ناهد ! ، لا بأس عليك ، أنا والله ما عرقتش
أبدا إنك تعبانه الا النهارده بس ، فجيت حالا أسأل عليك
وفي هذه الأثناء همس الدكتور في أذن عمه ، وغادر
الاثنان الحجرة

— الناظرة رفدتني يا أبله عشان الظابطة قالت لها على
اللى حصل لياتها

— أنا عارفة كل حاجة يا حبيبتى ، وحاولت كثير
أثنيها عن عزمها ، ولكنها كانت بعثت للوزارة جواب
فأصبح مستحيل أنها ترجع وتغير رأيها ، ويظهر أن
باباك عرف انك لسه عبيطة وبتحبينى فبعث لى جواب
قريته من قيمة ساعتين بس ،بيقوللى فيه إنك امبارح
المغرب كان عندك حمى شديدة وكنت بتهدى اسمى ،
ويظهر أن الدكتور نبيه فنصح والدك يبعث لى آجى ،
يمكن لما تشوفينى تسمنى وتتخنى ووشك يحمر تانى!!

وهنا ابتسمت ناهد الابتسامة الأولى منذ تركها
المدرسة إلى اليوم، خمسة أيام كلها هم وبكاء ومرض وهذيان
وواصلت المدرسة حديثها قائلة :

— بقى يا حبيبتى ، أنا نصحتك كثير إنك لازم
تبعدى الأوهام دى عن مخك ، لأن عاطفتك الشديدة
المتفانية دى كلها وهم وخيال، وعاقبتها سيئة زى ما انت شايفه
ولكن ناهد الغنيدة قاطعت مدرستها قائلة فى شغف

وشوق

— لكن أنا بحبك خالص يا أبله !
وهنا لم تجد المدرسة بداً من تغيير مجرى الحديث لعل
في ذلك تهديئة لتلك النفس الثائرة
— الدكتور ده يقرب لك يا ناهد ؟ شايفاه كده
بيوشوش باباك من غير تكليف

— أيوه يا أبله ده يبقى ابن عمى
— ابن عمك ؟ ياه ! كويس أوى !!
— وإيه رأيك يا أبله إنه طالب من بابا من أربع أيام
إنه يتجوزنى ، لكن أنا مش عايزه ، أنا بحبك إنت يا أبله !
— إخص عليكى ناهد عبيطة ! دانتى يظهر عقلك
قرب ياخبط ، بقى مش عاوزة تتجوزى عشان بتحبنى !
ياختى دانتى بكره تطلبى تتجوزينى أنا ! يا عبيطة دى فرصة
كويسة ، ما دامده ابن عمك ، ومر كزه كويس وبيحبك ،
خلاص عاوزة إيه أكثر من كده ؟ دنا لو كنت
مطرحك ما كنتش أقول لا أبداً

— مقدرش يا أبله أحب حد غيرك !
— لا لا ، انت يظهر بتخرفى ! انت حتزعلىنى منك
خالص ، إسمعى ! أنا وقتى النهارده ضيق ، وعاوزة أفوت

أشترى كام كتاب قبل ما ارجع المدرسة ، وإن شاء الله
يوم الحد حاجى أزورك ، وأرجو إني ألاقيك فى أحسن
صحة ، ولا بسة فستان الخروج علشان تروحي السينا مع
خطيبك ، اندهى لى بقى مبروكة عشان استأذن من باباك !
وجاء الوالد بعد برهة وأدهشه ما لاحظ على ابنته
من علائم النشاط والسرور ولم يسعه إلا أن يقول :
— دهده يا ناهد ، يظهر أن أبلتك جابت لك دوا

كويس معاها !

ثم التفت إلى المدرسة قائلاً

— أنا أشكر حضرتك جداً على هذا الجميل ، وطبعاً
كنت أود أن تنتظري للعشاء ، فهل تسمحى ؟
— متشكرة جداً ! والله أنا لازم أكون فى المدرسة
الساعة سبعة يعنى بعد ساعة وربع يا دوب

— طيب يا ستى أمرك

وانصرفت الأنسة فتحية ، وفى أثرها طلعت افندى ،
وعلى الدرج الخارجى ، التفتت لتلقى عليه تحية أخيرة
واسكنه استوقفها قائلاً :

— كنت أرجو أن تتكرمى ولو بدقيقتين استوضحك

عن سبب فصل ناهد من المدرسة لأنى فى غاية القلق من ناحيتها ، ويهمنى طبعاً إنى أفهم ليه هى دائماً حزينة ومهمومة . وربما يكون عندك معلومات عن الموضوع

— مافيش مانع بس مش عاوزه أتأخر أكثر من ربع ساعة

— متشكر أوى ، اتفضلى إذا سمحت فى أودة الجلوس . ووقف الدكتور مراد محيياً فى أدب عند ما دخل عليه الاثنان ، والتفت عمه إلى المدرسة مقدماً بقوله :

— الدكتور مراد ابن المرحوم أخويا

— تشرقنا

— حضرة الأنسة فتحية ، اللى كان لك الفضل فى

فكرة إرسال الجواب إليها

— أهلاً وسهلاً

وواصل طلعت افندى حديثه للآنسة

— مراد لاحظ ان ناهد بتهنى باسم حضرتك .

فاستتج أنها لابد تتمنى تشوفك مادامت بتحبك زى ما كانت بتقول ، وهو اللى أشار على بضرورة رجائك فى الحضور ، وكانت فكرة مثمرة جداً

— والله يمكنى أن أشرح لكم أن ناهد أصبح لها
عندى منزلة الأخت العزيزة فى قلبى ، ولو أنى متأسفة
جداً على خروجها من المدرسة بسبب محاولتها إظهار
حبها لى ، لأن الناظرة قاسية جداً ، وكان من سوء حظ
ناهد إنها تضرب بها المثل لباقي الطالبات ، ففصلتها نهائياً
عشان تدفع البنات إلى البعد عن هذا التفكير الخطير ،
والحقيقة إن المسألة دى عقدة من الصعب حلها فالعاطفة
عند بعض البنات الشريفات النفس ، تشرد بهم إلى التفانى
فى حب زميلة أو مدرسة زى ما حصل مع ناهد ، وطبعى
أن هذا الحب منافى لسنة الطبيعة ونهايته الفشل المحتم ،
ولكن ناهد مش عايزة تفهم كده أبداً

— ليه ؟ حضرتك قلتى لها حاجة النهاردة ؟

— طبعاً يا طلعت افندى ، لأنها صرحت لى أن
الدكتور خطبها من حضرتك ، ولكن هى مش عاوزة
تتجوزه لأنها بتحبنى أنا خالص !!

وضحك الوالد والخطيب على هذا التعليل الغريب ، وكان
السرور يبدو عليهما جلياً بعد أن تبددت غيوم الشك التى
ملأت نفس الأب عن ابنته ، والخطيب عن خطيبته

ووجد الدكتور الظرف مناسباً للدخول في الحديث
فقال :

— بقي حضرتك منافسة لي في هذا الميدان ؟
— إذا كان علي أنا ، فأنا منسحبة من الميدان من
الآن ، واسكن أنا قلقة علي ناهد لأن الظاهر أن عواطفها
من النوع الراسخ الثابت ، فلا يمكن زعزعته إلا بمجهود
وخصوصاً في الوقت ده ، وهي قاعدة لوحدها في البيت
وبتفكر دائماً

وساد السكون لحظة ، والكل ينظر إلى أرض الحجره
يفكر في حل لهذه المشكله المعقدة ، وأخيراً قال طلعت افندى
— يعنى إيه ؟ يعنى مافيش طريقه ولا إيه !!؟

— المهم في الظرف الناشئ عن خطوبه الدكتور لناهد ،
إن عواطفها ترجع لمجراها الطبيعى علشان ممكنه إنه يجد
فيها شريكه محبة مخلصه ، والانقلاب الفجائى ده عاوز
مجهود جريء ، وأنا خطر لي دلوقتى بس حل ربما يكون
متنافر شويه مع التقاليد ، ولكن نتيجهه على ما أعتقد
مؤكده ، وهي أن ناهد حشكرهني خالص فجأة ، وده هو
الى بنتمناه كلنا

— وإليه الحل ده من فضلك يا أستاذة ؟
وتمهلت الأنسة فتحية لحظة لتستكمل في مخيلتها
صورة هذا الحل الجرىء ثم قالت :

— من المسلم به أن الغيرة من غرائز الجنس بتاعنا ،
وإثارة الغيرة في قلب ناهد من نحوى هى أنجع دواء ، وأنا
أظن أن هناك طريقة معقولة وسريعة لها هذه النتيجة ،
بس أرجوكم ما تسيئوش الظن بها ، بأى أنا وعدت ناهد
إنى حزورها بعد ثلاثة أيام فما رأيكم إننا نسبك عليها حيلة ،
تمثيلية طبعاً ، وهى أن الدكتور يعرفنى من زمان ، وإنه
لما شافنى النهارده هنا . وكانت ناهد ترفض الزواج به ،
وكان عاوز شريكة لحياته ، فانه فضل أخيراً أن يخطبنى أنا
وهذا مجرد خداع كله بالطبع ، وتقدر يا طلعت افندى
تثير فى نفسها عوامل الحقد والغيرة من نحوى ، حتى
تنطلى عليها الحيلة ، فتكرهنى جداً ، وهو المطلوب ، فما
رأيكم فى هذا الحل ؟

وتبادل الدكتور وعمه نظرات الدهشة ثم قال
الأول :

— الفكرة حسنة فى حد ذاتها ، ولكن أخاف أن

حب ناهد لحضرتك يطغى على كل شيء وبعدين يكون
الموقف إزاي !

ولكن عمه قاطعه قائلًا :

— بس سيديوني أنا أسبك الحيلة عليها كويس ،
والحقيقة يا آنسة أنا عاجز عن التعبير عن شكوى
للاهتمام اللي أبديتيه بناهد بهذا الشكل

— والله أنا ما دفعني إلى التفكير في مثل هذه الحيلة
إلا إعزازي لناهد وعدم ارتياحي لحالتها ، ومن جهة
أخرى . غبتى فى تحويل عواطفها إلى المجرى الطبيعى ،
فتحب خطيبها وما تشعرش بشوق لحياة المدرسة من جديد
وبالطبع سيكون من السهل تدبير الباقي

وصممت المدرسة برهة ثم عادت تقول :

— بس أوعى تنسى تعزمنى فى فرح الدكتور وناهد
يا طلعت افندى !

فى يوم الأحد التالى دهش طلعت افندى إذ رأى
ناهد تبادر إلى ارتداء أجمل ثيابها وتبدو مبهجة فرحة ،
ثم تتخذ مقعداً فى الحديقة قرب مدخل البيت ، فى انتظار

حببتها الآنسة فتحية ! ، ولم يكن حتى هذه اللحظة قد
فاتحها في أمر خطيبة ابن عمها الجديدة !

ألقى عليها التحية ثم جلس قبالتها ، وبعد قليل قال :
— يعنى النهارده كده مترتبة أوى لازم عندك ضيوف !

— أيوه يا بابا ، أبله فتحية حتزورنى دلوقت !

-- بتقولى مين ؟

— أبله فتحية !

— المدرسة بتاعتك ؟ اللي بتحييها مش كده ؟ واللى

عشان خاطر عيونها خرجت من المدرسة مش كده !

— مين قال لك الكلام ده يا بابا ؟

— يا بتي انت لسه صغيرة ، ومتعرفيش ازاي الدنيا

مليانه خداع !

— ليه يا بابا الكلام ده ؟ !

-- أبلتك فتحية دى اللي كانت السبب فى قطع

تعليمك ومرضك وهمك ، كانت هى السبب برضه فى

اختطاف سعادتك وهنائك ! !

— مش فاهمة حاجه يا بابا ! أنا بحب أبله فتحية

وهى بتحبني

— انت بتحبيها دا يمكن معقول ، لكن لإنها بتحبك
فمجرد خداع ونفاق ، زى شغل التعلب بالضبط !!
— ازاي بأى ؟ !!

— تعرفى يا بتي ان الدكتور كان عندنا يوم الاثنين
بيسلم علىّ بعد ما جه من السفر ، واتفكلم معايا فى مسألة
جوازك ، ووعدته إنى لازم أسألك الأول ، ولما أخذت
رأيك قلتى لى انك مش عاوزة تتجوزى أبداً ، فزعل
خالص واثأثر ، ولما كان هنا يوم الخميس وجات المدرّسة
دخلت عندنا فى أودة الجلوس بعد ما خرجت من عندك ،
اتفصح أنها كانت تعرف الدكتور من ثلاث سنين ،
لأنه كان بيروح بيت سيد بك عبد الله لما كان عيان ،
وحضرتها ياستى تبقى بنت أخت سيد بك ، وأول
ما شافت مراد وسلمت عليه بصت له بصّة توييخ وقالت
له قدامى « اخص عليك يا مراد بقى بعد المعرفة الطويلة دى
تنسأنى مرة واحدة كده ؟ » ومارضيوش يقولوا حاجة
غير كده قدامى ، وبعدين تعرفى حصل إيه بعد ما خرجت
وخرج الدكتور !؟ — حزرى كده ؟
— حصل إيه يا بابا ؟

— سمعت ياستى ان مراد خطب ست فتحية بتاعتك
وربما يعملوا حفلة قريباً علشان يعلنوا الخطبة أو يكتبوا
الكتاب !! إيه رأيك بقى فى المقلب ده اللي عملته الست
حببتك !!؟ ...

— شىء غريب يا بابا؟!

ولم تنسع الظروف لطلعت افندى أكثر من ذلك
لاتمام الخدعة إذ قرع جرس الباب الخارجى ، ولم تكن
القادمة إلا الأنسة فتحية ، مرتدية ثوباً سماوياً بديعاً
تبدو فيه جميلة فتانة ، وعلى ثغرها ابتسامة لم يفهم معناها
سوى طلعت افندى الذى حنا رأسه نحو ناهد كأنه يقول
« الحيلة تنطلى ! »

— سعيدة يا ناهد ، إزيك النهارده إن شاء الله تكونى
بقيت عال !

ولكن عيني ناهد لم ترتفعاً عن الأرض وأجابت
فى فتور :

— الحمد لله أحسن شويه

— هو الدكتور مراد لسه ماجاش يا طلعت افندى

— لا يافندم لسه !

وانبرت ناهد في هذه اللحظة تقول في لهجة ذات معنى :
— أنا كنت فاكرة إنه لازم يسجى مع حضرتك
ووجدت المدرسة الفرصة سانحة لاتمام الخدعة
فقال: مندهشة :

— الله ؟ ! ، هو اتى عرفتى يا ناهد ؟ . طيب مش
تباركى لى بأى ؟ !

ولكن الغيرة قد بدأت سمومها تسرى فى فؤاد ناهد،
وأدركها السأم والسقم من مخاطبتها ، فقالت مفتعلة :
— أنا شاعرة بصداع ! وبدى استريح شوية ، عن
إذنكم !

ولم تنتظر إذنا بل أسرعت إلى حجرتها ، أما والدها
ومدرستها فقد وقفا يشيعانها بنظرات ذاهلة ، فلما غابت
عن الأنظار التفت طلعت افندى إلى جليسته قائلاً :
— شىء عجيب والله !! دا يظهر ان جنس الستات ده
فاهم بعضه أوى !! البنات متأثرة خالص !!

— خلاص اطمئن يا طلعت افندى ، ناهد دلوقت
تكرهنى جداً، بعد ما كانت تحببني جداً، وكل ده علشان نافستها
فى خطيبتها اللي كانت مش عاوزة تتجوزه ، والأمر ده

طبيعى ومنسجم مع غريزة المرأة ، فناهذ إحدى البنات
اللى بيوجدوا بيننا من وقت لآخر ، ويكونوا متشبعين
بالعواطف النبيلة ، فيتطور إعجابهم بأى شخصية من
الشخصيات اللى أمامهم إلى حب عميق ، قد يصل إلى
درجة خطيره ، ولكن أقل احتكاك بغرائزهم الطبيعية
يبرهن بسرعة على أن عشق المرأة للمرأة مصيره
الفشل المحقق

— ولكن ما نفتكر يش يا أستاذه إن ناهد دلوقت
تكره الدكتور كان ، ومن جهة أخرى بعد ما تفهم سر
الخدعة ، ما تظنّش أن حبها لك يرجع أكثر مما كان ؟
— أما من جهة كراهية ناهد فانها منصبة على أنا
بس ، لأنها تعتبرنى سارقة خطيبتها ومن جهة عاطفتها
نحوى بعد ما تفهم الحيلة ، فستكون عاطفة احترام أكثر
منها حب ، وده لن يؤثر على شعورها بالحب والاخلاص
نحو خطيبتها وزوجها ، ودلوقت تسمح لى حضرتك
بالانصراف وإن شاء الله أرجو أن تتم خطبة الدكتور
لناهد فى أقرب وقت لتجد ما يشغلها عن التفكير المضنى ،
وطبعاً سيكون من السهل على حضرتك وعلى الدكتور

تدير بقية الحيلة ، مع اختراع أى سبب معقول تقولوه
لناهد عن فسخ الخطبة الموهومة بين الدكتور ومدرستها
مش كده ؟!

— طبعاً طبعاً ، الله يخليك ياست فتحة وبارك فيك
— سعيدة بأى يا طلعت افندى
— سعيدة يا أستاذة ! متشكر خالص ، وأرجو أن
تهيئ لى الظروف فرصة لرد هذا الجميل

ومضى يومان وطلعت افندى لا يهمل فرصة
إلا وانتهازها لصب اللوم على ناهد لرفضها خطوبة ابن
عمها ، وعلى مدرستها التى غدرت بها وكانت سبب بؤسها
فى المدرسة وخارجها

وفى عصر الأربعاء خرج طلعت افندى إلى خيمة
الياسمين فى الحديقة حيث كانت تجلس ناهد وبيدها
إحدى مؤلفات المنفلوطى ، ولم يكن فى جعبته غير السهم
الآخر

— سعيدة يا نونا !

— سعيدة يا بابا

— انت عرقى آخر الأخبار ؟

— أخبار إيه يا بابا ؟

— مراد ضرب لى تليفون النهارده ، وبرضه عنده
جراءة يعزمنى أنا وانت فى حفلة كتب كتابه بكرة
المغرب !!

— بقى اسمع يا بابا ، أنا لا عاوزه أشوف مراد
ولا خطيبة مراد ، يا ريتنى كنت سمعت النصايح اللى
اتقالت لى ، على كل حال ، إذا كنت حضرتك عاوز
تروح بصفتك بدل والده ، اتفضل روح لوحدك !

وفى هذه اللحظة سمع صوت بوق سيارة تقترب من
بعيد ، ثم تقف أمام منزل طلعت افندى ، هى سيارة
الدكتور مراد الجديدة . يركبها لأول مرة
وعند الباب تصافح الدكتور وعمه فى الخفاء
وهمس الأول

— هيه ، إزى الحال يا عمى ؟

— عال أوى ، بس ناهد دلوقت متأثرة خالص من
خداع مدرستها ، ومش عارف أد إيه حتزعل منى لما
تعرف الحقيقة

— طيب بس يا عمى ! اعمل بقى انك زعلان منى
أنا كان !

وعند الخيلة ، كان طلعت افندى يبدو عليه الكدر
ولمکن الدكتور خاطب ناهد بقوله :

— إزيك يا ناهد ، على الله تسكوني شاعرة بتحسين
كبير على الدوا اللي جبتهم لك يوم الخميس اللي فات
— الحمد لله أحسن !

والتفت إلى عمه قائلاً بصوت مسموع :
— تسمح يا عمى تشرفنى بكره إن شاء الله زى ماقلت
لحضرتك فى التليفون ، لأنك طبعاً رجل العائلة ، وإذا
كانت ناهد تسمح تيجى مع حضرتك يكون شرف
عظيم ، وخصوصاً وإن فتحية (وقد نطق بهذه الكلمة
بمنتهى الصعوبة) ألحت على كثير إن ناهد لازم تكون
موجودة !

وعند ذلك بدت الرزانة والتروى بأكلهما على وجه
طلعت وقال وجبينه مقطب

— أنا يابنى معنديش مانع
— متشكر جداً يا عمى ، وإن شاء الله جبت لكم

العربية بكره الساعة أربعة بعد الظهر عشان تيجو فيها
لحد باب البيت ، وعن اذنكم بأى أحسن بدى أشترى
شوية حاجات ! ..

وفى اليوم التالى وقفت السيارة أمام منزل
طلعت افندى فى الساعة الرابعة بعد الظهر وقرع
السائق الجرس وكان الوالد فى الداخل يعمل كل ما فى
وسعه لاقناع ابنته بوجوب الذهاب معه ، وإلا فشلت
المؤامرة كلها ، قائلا لها :

— يعنى عاوزه البتاعة العجوزة دى تفرح فينا ؟
وكان نظهر قدامها بمظهر الضعف ! ؟ متبقيش عبيطة
بأى ، دانت حقتك تتزنى على الآخر عشان تبقى زى
الشمس وتكسفى بنورك حضرة الخطيبة ، تعرفى
يا ناهد لو كنت أنا مطرحك كنت أروح البس
الفستان السواريه اللى عملتيه عشان فرح بنت على بك ،
وتحطى الفورير على كتفك وتجى معايا ، بس أوامك
يا حبيبتي عشان العربية على الباب ، يللا أحسن أزعل
منك أمال !

ونجحت المحاولة وانطلقت السيارة تحمل الوالد
المسرور وابنته المهمومة ، إلى بيت الدكتور مراد
وكانت الزينات في أبداع أشكائها ، فقد اكتسى
البيت جدراناً وأبواباً بالأزهار وعناقيد المصاييح
الكهربائية الملونة، وزين المدخل بتاج جميل من المصاييح،
لم يهر الأيصار بعد ، إذ لم يزل الوقت نهراً

ولقد دهشت ناهد حين استقبلتها والدّة الدكتور
مراد ومن هناك من المدعوات بمنتهى الحفاوة والزغاريد
وحارت في أمر هذا الاستقبال ولم يمكنها تعليله

وتلفت ناهد هنا وهناك لعلها تعثر على خطيبة ابن
عمها ، فلم تجد لها أثراً ، فأثرت السكوت ، وهى تقول فى
نفسها « ربما لم تحضر بعد ! »

ومرت الدقائق تتلوها الدقائق والخطيبة الموهومة
لم تشرف بعد

وكان الذى يحدث فى البهو الخارجى يسترعى الأنظار،
فقد جلس المأذون وسط جمع من المدعوين يمهّد للعقد
بما تيسر من القرآن والحديث ثم دنت منه يدان يغطيها
منديل أبيض ، ولم تكونا غير يد الدكتور الخطيب ويد

عمه باعتباريه وكيلا عن ابنته ناهد، وتم الكتاب وصارت
ناهد عروس مراد، ومراد زوج ناهد، ودارت أكوام
عمير البرتقال، ووقف الكل يحيون الخطيب
ويهنئون، ويهنئون الوالد ويحيونه

ولم تفق ناهد من غفلة التفكير إلا لتجد نفسها
وسط المدعوات جميعاً يزغردن ثم يقبلن عليها مهنئات
مقبلات، وكان الدهول الذي ألم بها هو الذي جعلها
تسكت ولا تتكلم، وأخيراً اقتربت منها والددة الدكتور
فقبلتها بحنان قائلة :

— مبروك يا بنتي وألف مبروك، وأتمنى لك كل
سعادة وهناء مع مراد

وفتحت ناهد شفيتها لتستفسر عن تلك المظاهر
الغريبة، ولكن مراد دخل فدوت الزغاريد، وتقدم
نحو العروس فتناول يدها وطبع عليها قبلة طويلة اهتزت
لها جوانبها، وأخيراً تحرك لسانها فقالت في صوت
خافت :

— إيه ده يا مراد؟! انت بتجوزني أنا؟
— طيب وماله يا ستي؟ زعلانة ولا إيه؟ أنا بتجوزك

انت علشان ماأحبش إلا أنت، وأحلامى وآمالى لا تتحقق.

إلا معاكى اتى !!

— وأبلة فتحية ؟

— الله ! ؟ ده صحيح !!! . معاهش بقى ، ما هو الغايب .

مالوش نايب !!!

فهرس

صفحة							
٣	...	...	...	...	...	...	الاهنام
٤	...	...	...	...	...	...	كلبة المؤلف
٥	...	...	...	...	...	...	عابد الخيال
١٧	...	...	...	...	...	...	قيام الساعة
٤٨	...	...	...	...	...	...	مصرع أخى
٥٦	...	...	...	...	...	...	بورة فى سجن
٦٩	...	...	...	...	...	...	إبليس والشىخ سيف
٨٩	...	...	...	...	...	...	شروء العاطفة

تنبيه : الاسماء الواردة فى هذه القصص لا علاقة لها بالبة بأفراد الحياة.
الحقيقيين ، وكل تشابه من هذا النوع لا يسأل عنه المؤلف

بصیر قریبا للمؤلف :

قوس قزح

من أمتع ما یقرأ ، فترقبوه
